فهم القرآن

بين

القواعد الضابطة والمزالق المهلكة

دكتور

رمضان خميس الغريب

عضو هيئة التدريس في جامعة الأزهر
وأستاذ الدراسات القرآنية المساعد في كلية المعلمين
حائل المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد ﷺ وآله وصحبه ومن والاه اللهم إنا نبرأ من حولنا وطولنا وقوتنا ونلوذ بحولك وطولك وقوتك فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا قبضتها يا أرحم الراحمين اللهم إنا نسألك يا حنان يا منان يا بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تجعل أقوالنا وأفعالنا وحركاتنا وسكناتنا فيك لك خالصة إنك على كل شيء قدير .. أما بعد.

-١-

فإن كتاباً من الكتب السماوية أو الأرضية لم يلق من العناية والاهتمام مثلما لقي القرآن الكريم فقد تفرد هذا الكتاب الكريم بعناية أهله به عناية فاقت الحصر وزادت عن حد الكفاية والحاجة بمراحل طوال وآماد بعاد فقد عدت سوره وآياته وكلماته وحروفه وسجداته وتواتر ذلك جيلاً بعد جيلاً وقبيلاً بعد قبيل من لدن نزوله على قلب المصطفي ﷺ قبل ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمان إلى الآن إلى أن تقوم الساعة.

وما ذلك إلا جزء من أجزاء وعد الله تعالى بحفظه بقوله ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]

حتى بلغ حد العناية أن يقول الجيل الرائد «سلوني عن كتاب الله فوالله ما تسألوني عن آية إلا وأن أعلم فيمن نزلت ومتى نزلت

وأين نزلت» أو يقول كنا نتعلم العشر آيات من القرآن لا نجاوزها حتى نعلمها ونعمل بها فتعلمنا العلم والعمل معاً.

-٢-

ولم يكن هذا الجهد من الجيل الأول في حفظ القرآن الكريم والحفاظ عليه إيعاب ذاكرة مجردة أو استظهار قلب غافل بل تبع ذلك الحفظ الذي لا ينخرم والاستظهار الذي لا ينصرم معرفة بمضامينه وقضاياه وأمثاله وقصصه وأوامره ونواهيه وحكمه وإشاراته وثلتهم الأجيال المتعاقبة تكتب في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالقرآن الكريم في مكيه ومدنيه في إحكامه وتشابهه في نزوله وحججه وفي قصصه وتصويره وإعجازه وبيانه يستوقفون أنفسهم عند نتائجه بعد تعرفهم على مقدماته ويقفون على قضاءه بعد معرفتهم لأدلته وبيانه . أخرج مسلم في صحيحه أنه لما نزل قول الله تعالى: "**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**" [الأنعام: ٨٢]... قالوا : أينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي ﷺ ؛ الظلم : الشرك .

-٣-

من هنا أعطاهم القرآن الكريم كنزاً حقيقياً وسؤدداً صادقاً وقادو العباد وفتحوا البلاد بأمر الله رب العالمين حتى قال الفاروق ﷺ وأرضاه لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، وصدق ربعي بن عامر بحاله ومقاله هذا الأمر فعلم رسم ذلك بقوله (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى

عبادة الله رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، وما ذلك إلا لانطلاقهم من هذا المصدر الأصيل الذي هو أول مصادر التشريع الإسلامي الحنيف، ولم يكن أصحاب النبي ﷺ يقصرون هذا المصدر على جانب التشريع وناحية الفقه بمعناه المحدود الذي انحصرت فيه الأمة بعد ذلك أجيالاً متعاقبة وأحقاباً متطاولة بل كان الفهم القرآني لديهم يغزو كل جنبات الدين وأركان الحياة حتى قال عبد الله بن مسعود ﷺ وأرضاه «لو ضاع مني عقال بعيري لطلبته في القرآن الكريم فإن الله تعالى يقول " **ما فرطنا في الكتاب من شيء**" [الأنعام: ٣٨].

وأصبح الصحابة رضوان الله تعالى عنهم أجمعين في فترة محدودة ومدة معدودة من الزمن ينشرون الضياء ويهدون الناس إلى الله سبحانه وتعالى.

-٤-

حتى أتى على المسلمين حين من الدهر تبدلت لديهم المفاهيم وتغيرت المعاني والمعايير فأصبحت نظرتهم إلى القرآن الكريم نظرة جامدة هامدة لا تبني جيلاً ولا تنشئ حضارة ولا تؤسس في النفوس الوثبة إلى الإمام تلك الوثبة التي عاشها السابقون وبنى عليها اللاحقون فحققوا في فترات محدودة من الانتشار والهدى والعلم ما يعد معجزة حقيقية في مقياس المنصفين بشهادة أعدائهم قبل أصدقائهم

شهدت لها ضراتها بجمالها والفضل ما شهدت به الأعداء

-٥-

أعداؤنا والقرآن

لقد فهم أعداؤنا مكمن السر وعماد القوة لدى المسلمين فسخروا جيوشاً جزارة وجحافل متكاثرة لتحول بين المسلمين وهذا الضياء الذي أحالهم من موات حقيق وسبات عميق إلى أصحاب نهضة ورواد حضارة تجمع بين المادة والقيمة وتعيد للناس النظرة الصحية بين مقولات الدين ومتطلبات الحياة . وليس بعيداً عن أذهاننا كلمات هذا المستشرق الذي ذكر فيها أن المسلمين لن يتفرقوا ما دام فيهم القرآن والكعبة والأزهر» ويقوم غر صغير ليمزق المصحف في هذا المؤتمر فيؤكد له أن الغاية تمزيقه في صدور المسلمين لا من الورق والقرطاس).

وتتابعت جهودهم سيلاً لا ينقطع وزحفاً لا يتوقف في صور متعددة وألوان متباينة يظهر بعضها حينا ويخفي كثيراً منها حيناً ويسخر بعض المسلمين للقيام بالتنفيذ الثالثة الأخرى.

-٦-

خطتهم في هذا الجانب

من هنا حرص أعداؤنا على أن يصرفوا نظرنا عن القرآن وفهمه والحياة معه حياة فاعلة منتجة تثمر وتورق وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

وساعدهم على ذلك قبول المسلمين أو كثير من المسلمين فنجحوا في صرف اهتمامهم بالقرآن من المضمون إلى الشكل ومن الفهم والتوظيف إلى العناية بتجويده وقراءته ومن إقامة حدوده إلى إحسان حروفه فحسب . من هنا وجب على المسلمين أن يعيدوا النظر في علاقتهم بالقرآن لينتقلوا مما هم فيه إلى الحال التي أرادها لهم الله تعالى لذا كان هذا الجهد البسيط والعمل المتواضع إطلالة على أسس الفهم وقواعد الضبط العقلي التي تعين على حسن الإدراك وحسن التوظيف على قدر الطاقة البشرية وتحذيرا من المزالق المهلكة التي يضيع معها الجهد وتبعثر الطاقة وسعيا إلى نقل المعرفة من دائرة الفكر والعقل إلى ميدان التطبيق الواعي والتوظيف السليم والله المستعان.هذا وقد قسمت هذه الدراسة بعد المقدمة إلى أربعة محاور وخاتمة المحور الأول في أن الفهم القرآني فريضة قرآنية وضرورة حياتية وفيه تحدثت عن أهمية فهم القرآن ووجوبه والمحور الثاني في قواعد فهم القرآن وانتخبت منها عددا من القواعد التي تضبط فهم الإنسان للقرآن وتجعله أقدر على التعامل معه تعاملا صحيحا لأن السلوك فرع التصور وإذا صح الإدراك كان خطوة على طريق التنفيذ والتعامل وكانت هذه القواعد حول أسباب النزول وبيئة النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والوقف والابتداء ومعرفة أخبار العرب وعاداتهم وعلم أحوال البشر ومعرفة معهود الخطاب القرآني وقواعد اللغة العربية ومعرفة موضوع القرآن ومقاصده الأساسية

وجاء المحور الثالث حول العقبات التي تقف في طريق الفهم الإنساني للقرآن الكريم تلك التي تحول بينه وبين الإدراك الواعي والحكم السليم والإفادة الحقيقية من معين القرآن الكريم ومن تلك العقبات الميل إلى نزعة أو مذهب والنظرة الجزئية للقرآن الكريم والوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت أو وضع النصوص في غير مواضعها أو أن يكون هم الإنسان الكم لا الكيف وأن يكون غرضه آخر السورة دون الوقوف عند مفادها أو أن يكون المرء صاحب قلب مريض لا يعينه على الانتفاع أو أن يكون لديه تورع واهم أو تدين مغلوط وفهم مغشوش ومثل الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة أو أن يشغل نفسه بالمبهمات أو يهمل قواعد التفسير

وجاء المحور الرابع في معينات الفهم وكان من أبرز ما تناوله المعايشة للقرآن الكريم وحضور القلب والمدارسة وصدق الطلب وسلامة القراءة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها واستظهار القرآن وإدامة النظر فيه وصلاة الليل والتحلي بأخلاق القرآن قولا وعملا إلى غير ذلك من المعينات التي تتوجب على طالب الفهم القرآني أن يضعها في حسبانه حتى يصل إلى مراده ثم كانت الخاتمة وفهرس المراجع والمصادر ثم فهرس الموضوعات سائلا الله عز وجل أن يقبل جهدي ويغفر زللي ويتجاوز عن سيئاتي والله المستعان

حائل – المملكة العربية السعودية ١٢ من شهر شعبان ١٤٢٧ هـ ٢٠٠٦/٩/٥ م

رمضان خميس الغريب

المحور الأول

الفهم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية

قضية فهم القرآن ووقوف الإنسان على توجيهاته وإرشاداته وعبره وأمثاله وقضاياه في الحياة ليست أمرا فرعيا يحصله من يشاء ويهمله من أراد وليست قضية ثانوية على هامش الحياة تحصل في أي وقت أو لا تحصل إنما هي بحق فريضة قرآنية وضرورة حياتية فهي فريضة قرآنية لهذه الآيات التي تعددت وألحت في التأكيد على أهمية فهم القرآن ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [1] وقوله ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [2] وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تحتاج إلى دراسة مفردة وهي ضرورة حياتية لأن صلاح الإنسان في معاشه ومعاده رهن بفهمه لهذا الدستور الخالد والمنهاج القويم ذلك أن الله تعالى خلق الإنسان ووضع له نظاما يضمن له العز في النيا والسعادة في الآخرة هذا النظام هو القرآن الكريم بأوامره ونواهيه وإرشاداته وتوجيهاته فإن استطاع الإنسان ن يفهم القرآن الفهم الصحيح عز في الدنيا وأعمرها وارتفق خيرها وبنى حضارتها وصار بحق خليفة الله في أرضه وأهلا لهذا التكليف ومحلا لهذا التشريف الذي فضله الله تعالى به على سائر العالمين

---

(١) محمد ٢٤
(٢) الفرقان ٧٣

وإن أخفق - ولا أخفق - في تفهم هذا النظام الذي هو موضوع لصلاحه وإصلاحه كان كمن انطفأ النور أمام ناظريه فأصبح في دياجير الظلام ومهما كان ذا بصر شديد أو رأي رشيد أو عقل سديد فلن يصل إلى مبتغاه ولن يهتدي لهداه وكان كمن قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء فنودي لا عاصم اليوم من أمر الله وأصبح في عداد المغرقين لأن الضوء الكاشف خلاه والهادي البصير تركه وقلاه وصار مثله ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ * أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) لذلك دلهم الله على منهـــاج الخلاص في الآية التالية بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) ولعلك تلمح معي التعبير القرآني واستخدامه لفظ الربوبية بما تحمله هذه الكلمة من رعاية وعناية وحياطة وأمان

صلاح الحياة بصلاح النفوس وصلاح النفوس بتفهمها للقرآن

لا ينكر أحد أن محور الحياة وقلب ميزانها هو الإنسان الذي خلق الله تعالى من أجله كل شيء سخر له ما في السماوات وما في

(١) البقرة ١٧ - ٢٠
(٢) البقرة ٢١

الأرض وسخر له الأنهار بما فيها والأرض وما عليها وخلق الحياة كلها من أجله كي يكون بحق خليفته في أرضه يقيم عليها شرعه وينشئ فيها حضارة باسم الله رب العالمين فإذا صلح الإنسان صلح معه كل شيء في الحياة ولا يصلح الإنسان هكذا ضربة لازب أو خبط عشواء وإنما يصلح بصلاح فهمه للقرآن الكريم هذا الفهم الذي يختصر على الإنسان الأزمان ويطوي له المسافات ويوفر عليه الأيام والأوقات ولنا في العرب قبل الإسلام وبعده عبرة فلا يخفي ما كانوا عليه قبلا وما صاروا إليه بعد أن دبت فيهم روح القرآن لقد (صلحت أنفس العرب بالقرآن إذ كانوا يتلونه حق تلاوته في صلواتهم المفروضة،وفي تهجدهم وسائر أوقاتهم فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس المستعبدة لها وهذب أخلاقها وأعلى هممها وأرشدها إلى تسخير هذا الكون كله لها فطلبت ذلك فأرشدها طلبه إلى العلم بسننه تعالى فيه من أسباب القوة والضعف والغنى والفقر والعز والذل فهداها ذلك إلى العلوم والفنون والصناعات فأحيت مواتها وأبدعت فيها ما لم يسبقه إليه غيرها حتى قال صاحب كتاب تطور الأمم من حكماء الغرب (إن الفنون لا تستحكم في أمة من الأمم إلا في ثلاثة أجيال جيل التقليد وجيل الخضرمة وجيل الاستقلال وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد) [1] إن ذلك وإن كان مخالفا لما عهده الناس من تطور وتدرج إلا أنه ماض على النمط الطبيعي الذي يلتقي فيه الوحي الذي هو من روح الله تعالى مع الإنسان

(١) المنار ٧/١

الذي هو من نفخته ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾[1] وكذلك ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [2] فإذا التقت النفختان حدثت المعجزات .. لقد أخرج القرآن العرب عندما فهموه من طور البداوة الموغلة إلى نسمات الحضارة الباهرة فأصبحوا وهم بالأمس رعاة إبل وغنم - قادة الدنيا ورواد الأمم ليس ذلك لخصائص في أنفسهم فحسب إنما أيضا لهذه الروح التي سكبت في أنفسهم أثر امتزاجها بالقرآن (كان المسلم العربي يتولى حكم بلد أو ولاية وهو لا علم له بشيء من فنون الدولة ولا من قوانين الحكومة ولم يمارس من أساليب السياسة ولا طرق الإدارة وإنما كل ما عنده من العلم بعض سور من القرآن فيصلح من تلك الولاية فسادها ويحفظ أنفسها وأموالها وأعراضها ولا يستأثر بشيء من حقوقها هذا وهو في حال حرب وسياسة وفتح مضطر لمراعاة تأمين المواصلات مع جيوش أمته وحكومتها وسد الذرائع لانتقاض أهلها وإذا صلحت النفس البشرية أصلحت كل شيء تأخذ به وتتولى أمره فالإنسان سيد هذه الأرض وصلاحها وفسادها منوط بصلاحه وفساده وليست الثروة ووسائلها من صناعة وزراعة وتجارة هي المعيار لصلاح البشر ولا الملك ووسائله من القوة والسياسة فإن

(١) الشورى ٥٢-٥٣ .
(٢) الحجر ٢٩ .

البشر قد أوجدوا كل وسائل الملك والحضارة من علوم وفنون وأعمال بعد أن لم تكن ، فهي إذاً نابعة من معين الاستعداد الإنساني تابعة له دون عكس ودليل ذلك في العكس كدليله في الطرد فإنا نحن المسلمين وكثيرا من الشعوب التي ورثت الملك والحضارة عن سلف أوجدهما من العدم ممن أضاعوهما بعد وجودهما بفساد أنفسهم)[1]

(١) المنار ٧/١ .

المحور الثاني
قواعد الفهم

الفهم القرآني ضرورة حياتية وفريضة ربانية:

ذلك أن الواقع المعاش الذي يعانيه المسلمون يصرخ فيهم أن يعودوا إلى سبب العز والمجد الذي عاشه السابقون وسادوا به البلاد وهدوا العباد إلى طريق الهدى والرشاد بأمر الله عز وجل لقد كان لذلك سبب ظاهر ظهوراً عرفه الصحابة بعد أن عاشوه بل عايشوه حقيقة واقعة وأمراً ملموساً في حياة الناس وهو قربهم من فهم هذا الدستور الرباني الخالد حتى قال الفاروق ﷺ وأرضاه لقد كنا أذلة فأعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، وتسنمها ربعي وفخر بها (إن الله ابتثعنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) وهو فريضة ربانية لهذه الأوامر التي تتوالي على أسماع المسلمين تأمرهم بالتدبر والتفكر والنظر والاعتبار وتتواتر على أذهانهم من دعوات القرآن الكريم لهم ولغيرهم للنظر في مضامين القرآن الكريم وارتفاق خيره والانتفاع بتوجيهه وإرشاده حتى يصل المسلمين إلى فهم سليم للقرآن الكريم وإدراك عاقل لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية هناك عدد من القواعد التي إن رعوها وساروا على هديها وصل إلى بر الفهم السليم ومرفأ الإدراك الآمن لمحتوي القرآن الكريم وهذه القواعد نذكرها فيما يلي؟

القاعدة الأولى

معرفة أسباب النزول

لا شك أن معرفة سبب نزول الآية باب عظيم من أبواب فهمها وطريق قوي من طرق التوصل إلى إدراك مراد الله تعالى فيها- بقدر الطاقة البشرية والأسباب جمع سبب والسبب ما يتوصل به إلى غيره لذلك سمي الحبل سبباً في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج: ١٥] والنزول ورد في اللغة بمعني الانحدار من أعلى إلى أسفل وبمعني الانتقال من مكان إلى آخر ومن الأول قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (٢) وقوله تعالى على لسان نبي الله عيسى عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (٣) ومن لنا في قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴾ (٤).

والمراد بسبب النزول ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه وقت نزوله أو مبينةلحكمه أيام وقوعه كأن يكون ذلك حادثة وقعت

---

(١) الحجر: ٩.
(٢) القدر: ١.
(٣) المائدة: ١١٤.
(٤) المؤمنون: ٢٩.

أو سؤالاً وجه إلى النبي فنزل الوحي لبيان ما يتصل بهذه الحادثة أو بجواب هذا السؤال وذلك مثل حادثة «خولة بنت ثعلبة» التي ظاهر فيها زوجها أوس بن الصامت فنزل بسببها آيات الظهار في سورة المجادلة ومثل ما حدث بين الأوس والخزرج من خصومة بسبب تأليب أحد اليهود العداوة بينهما فقد نزل عقبها قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٩].(١)

والقارئ أو الباحث الذي يدرك سبب نزول الآية التي يقرؤها تكون لديه القدرة على الفهم الصائب والإدراك الواعي لمراد القرآن الكريم فلا يفسر آية بغير وجهها ولا يضع كلمة في غير بابها من هنا عنيت كتب علوم القرآن بالتأكيد على هذه الناحية من نواحي فهم القرآن واعتبارها قاعدة أصيلة من قواعد الفهم القرآني. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ومعرفة سبب النزول يعيين على فهمه فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف ما نواه الحالف رجع إلى سبب يمينه وما هيجها وآثارها»(٢).

من هنا اعتني العلماء بمعرفة سبب النزول وأفردوه بدراسات متخصصة فألف فيه على يد علي بن المديني شيخ الإمام البخاري

(١) انظر المدخل لدراسة القرآن الكريم د.محمد محمد أبي شهبة ط دار الجيل ١٤١٢هـ ١٩٩٢م ص ١٢٢ بتصرف. وانظر مناهل العرفان ج ١ صـ١٠٦ط الحلبي للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.
(٢) مقدمة أصول التفسير صـ ٨١ بتحقيق إبراهيم بن محمد ط دار المؤيد ط. أولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

والواحدي النيسابوري وابن حجر والسيوطي وابن الجوزي والجعبري وغير هؤلاء ممن يطول المقام بذكرهم كما اعتني به المفسرون في مقدمات تفاسيرهم التي تعد بذوراً لكثير من قواعد الفهم القرآني وأصول التفسير.

ولذلك خطأ الإمام الزركشي من زعم أن أسباب النزول تدخل في باب التاريخ فقال في برهانه «أخطأ من زعم أنه- أي علم أسباب النزول أنه لا طائل تحته لجريانه مجري التاريخ، وليس كذلك بل له فوائد منها بيان وجه الحكمة الباعثة على التشريع ومنها تخصيص الحكم عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، ومنها الوقوف على المعنى قال الشيخ أبو الفتح القشيري وابن دقيق العيد- «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز وهو أمر تحصل للصحابة بقرائن تحتف بالقضايا ومنها أنه قد يكون اللفظ عاماً ويقوم الدليل على التخصيص فإن محل السبب لا يجوز إخراجه بالاجتهاد بالإجماع: ومنها رفع توهم الحصر ومنها إزالة الإشكال»[١].

فمعرفة سبب نزول الآية يعين على فهم المراد منها ويعين على دفع الإشكال حتى قال الإمام الواحدي «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها».[٢]

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي صـ ٣٢ وما بعدها بتصرف ط دار المعرفة بيروت لبنان ط أولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠ م ت د. يوسف المرعشلي واخرين..

(٢) انظر مناهل العرفان في علوم القرآن ط الحلبي صـ ١٠٨.

كما إن إدراك السبب يعين على الحفظ ويثبت الوحي في ذهن كل من سمع الآية وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات والأحكام بالحوادث والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة كل ذلك من دواعي تقرر الأشياء وانتقاشها في الذهن وسهولة استذكارها عند استذكار مقارناتها في الفكر وذلك هو قانون تداعي المعاني المقرر في علم النفس [١] ويمكن أن تدرك قيمة سبب النزول وأثر معرفته في فهم الآية من نصوص متعددة فعروة بن الزبير ﷺ وأرضاه يفهم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢] [البقرة: ١٥٨] يفهم من الآية الكريمة أن لا إثم على من ترك السعي بين الصفا والمروة لأن الآية الكريمة تقول ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ ونفي الجناح لا يدل على الفرضية، حتى صوبت له خالته السيدة عائشة في فهم بتذكيره بسبب النزول وهو أنه كان على الصفا صنم يقال له (إساف) وعلى المروة صنم يقال له (نائلة) وكان المشركون إذا سعوا امتسحوا بهما فلما ظهر الإسلام وكسرت الأصنام تحرج المسلمون أن يطوفوا بهما لذلك ولأن الله تعالى لم يذكر السعي بين الصفا والمروة في القرآن كما ذكر الطواف وكما أشكل على مروان بن

(١) انظر مناهل العرفان ط صـ ١١٣، ١١٤، وانظر المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ ١٢٥ للأستاذ محمد أبي شهبة وانظر دراسات في علوم القرآن صـ ١٩٨ ط دار المنار لأستاذنا المرحوم د. محمد بكر إسماعيل طيب الله ثراه.

(٢) انظر المدخل لدرسة القرآن الكريم صـ١٢٦. بتصرف.

الحكم فهمه قوله تعالى: "لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ"[١] حتى بعث إلى ابن عباس يقول: لئن كان كل امرئ فرح بما أوتي وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً لنعذ بن أجمعون فقال ابن عباس إن هذه الآية نزلت في أهل الكتاب حين سألهم النبي عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عن واستحمدوا بذلك إليه [٢] والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى وخلاصة القول أن إدراك سبب النزول يعين على فهم الآية فهماً صحيحاً- ويزيل من الذهن اللبس والإشكال. بل يعين على الحفظ والاستذكار-.

(١) آل عمران ١٨٨ .
(٢) المدخل الدراسة القرآن الكريم صـ ١٢٩. وانظر مناهل العرفان ط صـ ١١٠وانظر أسباب النزول للإمام الواحدي صـ٢٤ و٢٥ وصـ ٧٨ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ مـ.

القاعدة الثانية

معرفة بيئة النزول

وأقصد ببيئة النزول أولاً البيئة المكانية فغير خاف على مسلم أن القرآن نزل في مرحلتين : المرحلة الأولى في مكة والمرحلة الثانية في المدينة . ولكل نزول بيئته الخاصة به وملابساته وأحواله التي إن أدركها قارئ القرآن الكريم وسامعه ووضعها المفسر في حسبانه وذهنه قصر عليه مسافات كثيرة في الفهم والإدراك. من هنا عني علماؤنا وسلفنا الصالح بإفراد ذلك في دراسات متعددة تحت باب المكي والمدني في القرآن الكريم فألفوا فيه ضمن كتابتهم عن علوم القرآن . فلا يكاد يخلو كتاب من كتب علوم القرآن من الحديث عن المكي والمدني وانظر في ذلك البرهان والإتقان للسيوطي ومناهل العرفان للزرقاني والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبة ومباحث في علوم القرآن للشيخ صبحي الصالح والشيخ مناع القطان ، ودراسات في علوم القرآن لأستاذنا الدكتور محمد بكر إسماعيل وغير ذلك من الكتب التي عنيت بذكر هذا المبحث من مباحث علوم القرآن.

والمكي كما ورد في تعريف العلماء هو ما نزل قبل الهجرة والمدني هو ما نزل بعد الهجرة وهذا هو المختار من التعريفات المتعددة، ولا شك أن إدراك البيئة المكانية لنزول الآية الكريمة يعين على فهمها وإدراك مراميها لذلك قال شيوخنا «معرفة المكي

والمدني من المباحث المهمة التي يحتاج لها المفسر لكتاب الله تعالى ممن نصب نفسه للاجتهاد والفتيا والقضاء كي يمكنهم التوصل إلى الحق والصواب. ولذلك قال أبو القاسم النيسابوري في كتابه التنبيه على فضل علوم القرآن «من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة وحكمه مدني وما نزل بالمدينة وحكمه مكي وما نزل بمكة في أهل المدينة وما نزل في المدينة في أهل مكة وما يشبه نزول المكي في المدني وما يشبه نزول المدني في المكي [1] ولهذه القاعدة فوائد متعددة فمنها التمييز بين الناسخ والمنسوخ ومعرفة تاريخ التشريع ومنها الثقة بهذا القرآن ووصوله إلينا سالما من التغيير والتزييف ومعرفة الخصائص البلاغية للقرآن الكريم المكي والمدني ولا يخفي على إنسان منزلة معرفة المكي والمدني من القرآن والوصول إلى مراميه

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم صـ ١٩٧ نقلا عن الإتقان ١/ ٨.

القاعدة الثالثة

معرفة الناسخ والمنسوخ

ومعرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم من أسس فهم القرآن وإدراك معانيه ولذا عني به السابقون وصنفوا فيه. يذكر الإمام الزركشي ذلك في برهانه فيقول والعلم به عظيم الشأن وقد صنف فيه جماعة كثيرون منهم قتادة بن دعامة السدوسي وأبو عبيد القاسم بن سلام وأبو داود السجستا ني وأبو جعفر النحاس وهبة الدين بن سلام الضرير وابن العربي وابن الجوزي وابن الأنبا ري وغيرهم.. وقد قال الأئمة: لا يجوز لأحد أن يفسر كلام الله إلا بعد أن يعرف فيه الناسخ والمنسوخ وقد قال علي بن أبي طالب لقاص أتعرف الناسخ والمنسوخ قال لا أعلم قال هلكت وأهلكت»[1] ومعرفة الناسخ والمنسوخ ركن عظيم في فهم الإسلام وفي الاهتداء إلى صحيح الأحكام خصوصاً إذا ما وجدت أدلة متعارضة لا يندفع التناقض فيها إلا بمعرفة سابقيها ولاحقيها وناسخها ومنسوخها ولهذا كان سلفنا الصالح يعنون بهذه الناحية ويلفتون أنظار الناس إليها ويحملونهم عليها. فقد جاء في الأثر أن ابن عباس ﷺ فسر الحكمة في قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [2] بمعرفة ناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ج٢ صـ ١٥٧، ١٥٨ بتصرف يسير.
(٢) البقرة من الآية ٢٦٩.

ومتشابه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه. وورد أن علياً كرم الله وجهه دخل المسجد فإذا رجل يخوف الناس وقال ما هذا؟ قالوا: رجل يذكر الناس فقال ليس برجل يذكر الناس ولكنه يقول أنا فلان ابن فلان فاعرفوني فأرسل إليه فقال أتعرف الناسخ من المنسوخ قال لا قال فاخرج من مسجدنا لا تذكر فيه[١] ولا شك أن إدراك الناسخ والمنسوخ يوقف الباحث والمفسر على السابق والمسبوق من القرآن الكريم ويطلعه على الأحوال التي نزل القرآن الكريم ليعالجها وهذه كلها شواهد تحيط الإنسان علماً بالمناخ الذي نزل فيه القرآن الكريم وتجعله أقدر على توظيف الآية القرآنية الكريمة في مكانها الطبيعي دون غلو ولا شك (أن علم الناسخ والمنسوخ يلقي الضوء ساطعاً على المراحل المتعاقبة لنزول القرآن الكريم ويعين على تتبعها ورسمها بدقة بالغة وهو ضرب من ضروب التدرج في نزول الوحي ومعرفتنا بما صح من جوهره تيسر علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية وتظهرنا على جانب من حكمة الله تعالى في تربية الخلق وتوقفنا على المصدر الحقيقي للقرآن الكريم وهو الله تعالى رب العالمين لأنه يمحو ما يشاء ويثبت ويوقع حكماً ويبدل آخر من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن) [٢].

فعلم الناسخ والمنسوخ باب من أبواب فهم القرآن فهماً

---

(١) انظر مناهل العرفان جـ٢ صـ ١٧٤.
(٢) انظر مباحث في علوم القرآن ط دار العلم للملاين الرابعة للنشر ٢٠٠٠ م د صبحي الصالح بتصرف يسير

صحيحاً دون خلط بين المفاهيم لأنه يوضح مسيرة التشريع الإسلامي في المسائل الاجتماعية والتشريعية ويضع خارطة في ذهن الباحث والمفسر من خلالها يستطيع أن يستبين مواطن خطواته ومظان مطلوبه.

القاعدة الرابعة

معرفة المحكم والمتشابه

ومعرفة محكم القرآن الكريم ومتشابهه باب قوي من أبواب الفهم الصحيح للقرآن الكريم وطريق من طرق التوصل إلى إدراك المعني القرآني عبر وسيلة آمنة وضابط من الضوابط التي لو راعاها المفسر والباحث والقارئ لنجا من الزيغ والسقوط في فهم غير صحيح أو رأي غير عاقل. من هنا عني العلماء قديما وحديثاً بهذا الباب في دراسات خاصة وفي تناولهم لمباحث علوم القرآن وإطلالة سريعة على فهرس أي سفر من أسفار علوم القرآن ستوضح هذا الأمر ببساطة ويسر.

- ذلك أن القرآن الكريم وردت فيه آيات ثلاث تفيد أولها أن القرآن الكريم كله محكم وهي قوله تعالى ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ (١)

وآية تدل على أن كله متشابه وهي قوله تعالى ﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ (٢) والثالثة تفيد أن بعضه محكم وبعضه متشابه وهي قوله تعالى ﴿ **هُوَ الَّذِي**

(١) فصلت: ١.
(٢) الزمر:٢٣.

أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾ (١)

وقد ذكر العلماء وجوهاً وتوجيهات لهذه الآيات الكريمة نختار منها أن المراد بالإحكام (أنه رصين ومتقن حكيم يتحدى الزمن ولا ينتابه تصدع ولا وهن ومعني كونه متشابهاً أنه يشبه بعضه بعضاً في إحكامه وحسن بيانه وبلوغه حد الإيجاز في ألفاظه ومعانيه حتى إنك لا تستطيع أن تفاضل بين كلمات وآيات في هذا الحسن والإحكام والإيجاز كأنه حلقة مفرغة لا يدري أين طرفاها. وأما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فمعناه أن من القرآن ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى ومنه ما خفيت دلالته على هذا المراد الكريم . فالأول هو المحكم والثاني هو المتشابه على خلاف بين العلماء في ذلك على أن الذي اتفقوا عليه ولا يمكن أن يختلفوا فيه هو أنه لا تنافي بين كون القرآن كله محكماً دقيقاً وبين كونه كله متشابهاً أي يشبه بعضه بعضاً في هذا الإتقان والإحكام وبين كونه منقسماً إلى ما اتضحت دلالته على مراد الله تعالى وما خفيت دلالته.

ومما يظهر لك منزلة هذا الباب في الفهم والتفسير أن تدرك أن آية آل عمران وهي قوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ

(١) آل عمران: ٧.

مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ الآية كانت فارقة بين السلف والخلف في الفهم والتفسير فقد وقف السلف على قوله تعالى ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ وعدوا الواو استئنافية لمعنى جديد ورأي الخلف أن الواو عاطفة عطفت الراسخين في العلم على لفظ الجلالة (الله) في العلم بالمتشابه يقول الإمام الزركشي رحمه الله في البرهان فمنهم من رجح أنها (أي الواو) للاستئناف وأن الوقف على "إِلاَّ اللهُ" وأن الله تعبدهم من كتابه بما لا يعلمون وهو المتشابه كما تعبدهم من دينه بما لا يعقلون وهو التعبدات.. وفهم من رجح أنها للعطف أن الله لم يكلف الخلق بما لا يعلمون وضعف الأول لأن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده ويدل على معنى أراده فلو كان المتشابه لا يعلمه غير الله لكرر معناه، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ يعلم المتشابه فإذا جاز أن يعرفه الرسول مع قوله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ ﴾ جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته والمفسرون من أمته ألا ترى أن ابن عباس كان يقول أنا من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله تعالى في أصحاب الكهف ﴿ مَا يَعْلَمهم إلا قليلُ ﴾ [١] وأنا من أولئك القليل[٢]

من هنا تظهر قيمة إدراك المحكم والمتشابه لتفسير كتاب الله ﷻ .

(١) مناهل العرفان جـ٢، صـ٢١١.
(٢) البرهان جـ٢ صـ ٢٠٢، ٢٠٣.

القاعدة الخامسة

معرفة الوقف والابتداء

ولا شك أن معرفة الوقف والابتداء معين على معرفة اكتمال المعنى وفهم المراد لذلك عني به العلماء قدامي ومحدثون وعدوه علماً مستقلاً عن علوم القرآن. وقد مضى بنا قبل قليل مدى الخلاف الواقع بين السلف والخلف من أجل خلافهم في الوقف وذلك من خلال آية آل عمران.. ونستطيع أن نفرق بين قارئ فاهم للقرآن وقارئ غير واقف على المعاني من طريقة الوقف والابتداء عند كليهما فقد تسمع قارئا يقرأ قوله تعالى ﴿ **فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾[1] فيقف على (استحياء) ويبدأ بقوله ﴿ **اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ** ﴾ فيفيدك معنيين الأول أن مشيها كان على استحياء والثاني أن كلامها على استحياء وما ذلك إلا لفهمه للمعنى المبني على طريقة الوقف والابتداء. وتسمع آخر يقرأ قوله تعالى "﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ [2] فيقف على قوله ﴿ **لَا تُشْرِكْ** ﴾ ثم يبدأ بقوله ﴿ **بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾ فيفدك النهي عن الشرك والقسم بالله أن الشرك ظلم عظيم وذلك مقامه طريقة الوقف

---

(١) القصص من الآية: ٢٥.
(٢) لقمان من الآية: ١٣.

والابتداء . وكم في القرآن الكريم من جمل تحمل هذه الوقفات حتى عده العلماء علماً من علوم القرآن لا يكون المرء فاهماً إلا به. من هنا كثرت عناية السلف بالحديث عن الوقف والابتداء وصلتهما لمعاني وأهمية إدراكها. ولم يكن هذا الاهتمام إلا بعد العصور الأولى لأسباب متعددة منها أن الوقف والابتداء كان معروفاً لدى الأولين حتى اختلطت الأمور على من بعدهم حتى نشط لذلك حكماء أفذاذ ضبطوا وقوف القرآن وابتداءاته حسب مقتضيات المعنى فألف فيه عدد من العلماء منهم ابن الأنباري وأبو جعفر النحاس وأبو عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة والإمام نافع الليثي أحد القراء كذلك والإمام ابن الجوزي وغيرهم. يقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله (لم يشتد اعتناء السلف بتحديد أوقاف القرآن لظهور أمرها وما ذكر عن ابن النحاس من الاحتجاج لوجوب ضبط أوقاف القرآن بكلام لعبد الله بن عمر ليس واضحاً في القرائن المحتج بها.. فكان الاعتبار بفواصله التي هي مقاطع آياته عندهم أهم لأن عجز قادتهم وأولي البلاغة والرأي فيهم تقوم به الحجة عليهم وعلى دهمائهم فلما كثر الداخلون في الإسلام من دهماء العرب ومن عموم بقية الأمم توجه اعتقاد أهل القرآن إلى ضبط وقوفه تيسيراً لفهمه على قارئيه فظهر الاعتقاد بالوقوف وروعي فيها ما يراعي في تفسير الآيات فكان ضبط الوقوف مقدمة لما يفاد من المعاني عند واضع الوقف[1]، وقد اعتنى العلماء رغم ذلك ببيان مواطن الوقف والابتداء وأنواعه والوقف المأخوذ عن

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٤.

النبي ﷺ وكتبوا فيه كتباً مستقلة وأكدوا على صلة المعني بالوقف والابتداء بل ذكروا أن الأحكام الشرعية لا تستنبط استنباطا صحيحاً إلا بتمام معرفة هذا العلم من علوم القرآن حتى قال الإمام النكزاوي (وباب الوقف عظيم القدر جليل الخطر لأنه لا يتأتى لأحد معرفة معاني القرآن ولا استنباط الأدلة الشرعية منه إلا بمعرفة الفواصل. ونقل عن أبي حاتم قوله (من لم يعرف الوقف لم يعلم القرآن وبالجملة فالوقف حلية التلاوة وزينة القارئ وبلاغ التالي وفهم المستمع وشرف للعالم وبه يعرف الفرق بين المعنيين المختلفين والقضيتين المتنافيتين والحكمين المتغايرين[1]. ومن الضروري للقارئ أن يفهم ما يقرأ حتى لا يغير المعنى حال قراءته وأن يكون يقظاً متفهماً ما يقرأ ملاحظاً في الآيات وما ترمي إليه مواقع الجمل دون الالتفات إلى التباهي بطول النفس ودون الوقوف لأداء معان تتفق والأهواء البشرية بعيدة عن شرف المعني القرآني وإعجازه ومما مثّل به العلامة ابن عاشور من فوائد معرفة الوقف والابتداء وبديع أمثلته له قوله (إن التعدد في الوقف قد يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدد المعني مع اتحاد الكلمات فقوله : ﴿ **وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا** ﴾ [2] فإذا وقف على " قَوَارِيرَ" الأول كان

(١)انظر الوقف والابتداء وصلتهما بالمعني في القرآن الكريم رسالة ماجستير لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح صـ ٤، ٥ بتصرف يسير وانظر هذه النقول في مكان الاقتداء في معرفة الوقف والابتداء للنكزاوي .صـ١١.ولطائف الإشارات للقسطلاني ١/ ٢٤٩.

(٢) الإنسان ١٥، ١٦

(قواريرا) الثاني تأكيدا لرفع احتمال المجاز في لفظ " قَوَارِيرَ" وإذا وقف على " قَوَارِيرَ" الثاني كان المعني الترتيب والتصنيف كما يقال قرأت الكتاب باباً باباً وحضروا صفا صفاً وكان قوله "مِّن فِضَّةٍ" عائداً إلى قوله "بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ" (١)

وهذا من روائع ابن عاشور في استنباطاته ولطائفه من أجل ذلك أكد سلفنا على اكتمال المعني لدى القارئ عند قراءته حتى يفهمه ويفهم سامعه فيبدأ بالكلام المتصل بعضه ببعض ويقف عند تمام المعني حتى ذكر الإمام النووي في تبيانه (أن القارئ إذا ابتدأ من وسط السورة أو وقف على غير آخرها ينبغي له أن يبتدئ من أول الكلام المرتبط بعضه ببعض وأن يقف على الكلام المرتبط ولا يتيقد بالأعشار والأجزاء فإنها تكون في ربط الكلام المرتبط . وبعد أن مثل لبعض الأعشار والأرباع التي لا تتم قال «مثل هذا وشبيهه ينبغي أن نبدأ به ولا يوقف عليه فإنه متعلق بما قبله ولا يعترف بكثرة الغافلين له من القراء الذين لا يراعون هذه الآداب ولا يفكرون في هذه المعاني. ومثل ما رواه الحاكم أبو عبد الله بإسناده عن السيد الجليل الفضيل بن عياض ﷺ قال: «لا تستوحش طرق الهدى لقلة أهلها ولا تغتر بكثرة الهالكين ولا يغرك قلة السالكين» ولهذا المعني قالت العلماء قراءة سورة قصيرة بكاملها أفضل من قراءة بعض سورة طويلة بقدر القصيرة فإنه قد يخفى الارتباط على بعض الناس في بعض الأحوال. وقد روي ابن أبي

(١) التحرير والتنوير ١/ ٨٣.

داود بإسناده عن عبد الله بن أبي الهذيل التابعي المعروف ﷺ قال كانوا يكرهون أن يقرؤوا بعض الآية ويتركوا بعضها»[1] وخلاصة القول أن معرفة الوقف والابتداء من أبواب فهم القرآن وطريق من طرق بيان المعنى واتضاحه في ذهن القارئ والسامع وكم رأينا من أناس يقفون على كلمات يؤدي وقفهم إلى فساد المعنى وإضاعة المراد والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم.

(١) انظر التبيان في آداب حملة القرآن صـ ٧٥، ٧٦.

القاعدة السادسة

معرفة عادات العرب وأخبارهم

من الأمور اللازمة للمفسر حتى يفهم مراد القرآن ويعي مرماه أن يدرك عادات العرب التي نزل القرآن ليتحدث عنها والتي تمثل لهم حياتهم الخاصة التي تتميز عن حياة من سواهم وتنفرد ببعض الخصائص والسمات تلك التي راعاها القرآن الكريم ووضعها في حسبانه وهو يأمرهم وينهاهم ويعظهم ويرشدهم ويوجههم إلى الصراط المستقيم فقد كان للعرب مثلاً عادات وأعراف في علاقة الرجل بالمرأة ونظرته إليها في طفولتها ويفاعتها وشبابها ونزل القرآن الكريم يراعي هذه العلاقة وتلك النظرة وأنزل لها الخطاب الوافي الكامن الذي يتناسب مع تلك العادات واقرأ إن شئت مثلاً قوله تعالى وهو يتحدث عن علاقة الأب بولده إن كان أنثي ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ (١) والآية تصور بوضوح وجلاء علاقة العربي بابنته وترصد تلك الخلفية الاجتماعية التي كان يحياها الإنسان العربي في هذا الزمان، واقرأ أن شئت كذلك قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي**

(١) النحل: ٥٨، ٥٩.

الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [١] والآية الكريمة تصور كذلك طبيعة هذا العربي الذي يجعل لله تعالى ما يأباه لنفسه ويجعل له الإناث في الوقت الذي يأبى أن يرضاهن لنفسه وإذا بشر بهن اسود وجهه بل ظل مسوداً وهو كظيم، ومن العادات التي رصدها القرآن الكريم في حياة العرب كذلك دخولهم من خلف الدار في الأشهر الحرم والتي صورها القرآن الكريم بقوله ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [٢] فكيف يتسنى لمفسر أن يفهم هذه الآية دون أن يفهم عادات العرب في ذلك (فقد ذكر أهل التفسير أن العرب (كانوا إذا أحرموا الحج أو العمرة من بلادهم جعلوا من أحكام الإحرام ألا يدخل المحرم بيته من بابه ولا يدخل تحت سقف يحول بينه وبين السماء وكان المحرمون إذا أرادوا أخذ شيء من بيوتهم تسنموا على ظهور البيوت واتخذوا نقباً في ظهور البيوت إن كانوا من أهـل المدن، وإن كانوا من أهـل الخيام دخلوا من خلف الخيمة) [٣] ومن العادات الاجتماعية والأعراف العربية التي ذكرها القرآن الكريم جعلهم البحيرة والوصيلة والسائبة والحام وصحح معتقدهم في ذلك فقال تعالى ﴿ **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ**

---

(١) الزخرف: ١٧، ١٨.
(٢) البقرة: ١٨٩.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٩٧.

وَأَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [١] فكيف يقف المفسر أمام هذه الآية دون أن يعرف الخلفية الاجتماعية لها ودون أن يعي عادات العرب في تعاملهم مع هذه الأشياء البحيرة والوصيلة والسائبة والحام.

وما حديث القرآن عن الصفا والمروة وموقف عروة بن الزبير من ذلك عنا ببعيد فإنه عندما لم يعرف عادة الأنصار في ذلك وتلك العادة التي كانت سبباً لنزول هذه الآيات الكريمة ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [٢]

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب قال البحيرة التي يمنع وردها للطواغيت فلا يحلبها أحد من الناس والسائبة التي كانوا يسيبونها لألهتهم فلا يحمل عليها شيء قال: وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ : رأيت عمر بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار كان أول من سيب السوائب، والوصيلة الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل بأنثى ثم تثنى بأنثى وكانوا يسيبونهم لطواغيتهم إن وصلت إحداهما بالأنثى ليس بينهما ذكر والحام فحل يضرب الضراب المعدودة فإن ضرابه ودعوه للطواغيت وأعفوه من الحمل فلم يحمل عليه شيء وسموه الحامي[٣]

ولولا وقوف المفسر على هذه العادات والتقاليد العربية التي نزل فيها القرآن الكريم لما فهم الفهم المطلوب.

---

(١) المائدة: ١٠٣.
(٢) البقرة: ١٥٨.
(٣) صحيح البخاري ٣-١٢٩٧ومسلم ٤-٢١٩٤.

وقد عني بجمع عادات العرب وتقاليدهم كثير من العلماء وتوجهت همتهم إلى تسجيل وبحث جوانب من حياة العرب الاجتماعية وألفوا فيها كتباً مستقلة (ومن هذه الكتب الميسر والقداح لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة من رجال القرن الثالث وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب ونشر في القاهرة سنة ١٣٤٢هـ ومنها كتاب أيمان العرب لأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله البصرمي من رجال القرن الرابع وقد حققه الأستاذ محي الدين الخطيب كذلك، ومنها كتاب أديان العرب، الأصنام، القداح، الكهان، والجن، ما كانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الإسلام، وأسواق العرب ومعظم هذه الكتب ذكرها ابن النديم في الفهرست) [1] ودراسة هذا الجانب من جوانب الخلفية الاجتماعية التي نزل فيها القرآن الكريم من الأهمية بمكان لإدراك مرامي القرآن الكريم ومقاصده ووسائله فمعالجة هذه الجوانب والعادات ودراسة المفسر لها وإلمامه بها تفتح له أبواباً من الفهم ومدارك متعددة ومن المعارف التي تمثل شيئا مهاداً بال من الخلفية الاجتماعية التي تعين على فهم القرآن الكريم ومعرفة أخبار العرب كذلك ولأمر ما كانت الدراسات الاستشراقية تعني برصد العادات والتقاليد والأخبار والمعارف صغيرها وكبيرها للأمة التي تريد أن تغزوها فإن هذه الدراسات تمثل جانباً من جوانب الشخصية المعنية والتي يراد فهمها وقد ذكر الطاهر بن عاشور - رحمه الله- شيئاً من ذلك في

---

(١) انظر بحوث في أصول التفسير للأستاذ الشيخ محمد الصباغ صـ ١٨٧، ١٨٨ بتصرف وترتيب.

مقدماته لتفسيره وأنكر على من عد معرفة أخبار العرب شيئاً من اللغو فقال «وأما أخبار العرب فهي من جملة أدبهم وإنما خصصتها بالذكر تنبيهاً لمن يتوهم أن الاشتغال بها من اللغو فهي يستعان بها على فهم ما أوجزه القرآن في سوقها لأن القرآن إنما يذكر القصص والأخبار للموعظة والاعتبار لا لأن يتحادث الناس بها في الأسمار فبمعرفة الأخبار يصرف ما أشارت إليه الآيات من دقائق المعاني فنحو قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا** ﴾ [١] وقوله تعالى: ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ** ﴾ [٢] يتوقف على معرفة أخبارهم عند العرب[٣] . فمعرفة أخبار العرب تتيح للمفسر وقارئ القرآن الكريم أن يتصور تلك الحياة الاجتماعية التي نزل القرآن الكريم فيها يخاطب «مرب بأمرهم وينهاهم ويرشدهم مقراً لبعض معارفهم وعاداتهم وحقوقاً لبعضها الآخر ويرى الشيخ محمد عبده – رحمه الله– وهو يتناول الحديث عن مراتب التفسير يذكر أن أعلى مراتب التفسير لا تتم إلا بأمور ومقومات منها معرفة المفسر بما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم لأن القرآن ينادي بان الناس كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي ﷺ بعث لهدايتهم وإسعادهم وكيف يفهم المفسر ما قيمته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه؟ هل يكتفي من دعاة الدين والمناضلين عنه

(١) النحل من الآية: ٩٢.
(٢) البروج من الآية: ٤.
(٣) التحرير والتنوير جزء ١صـ ٢٥.

بالتقليد بأن يقولوا تقليداً لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وإن القرآن دحض أباطيلهم في الجملة... كلا... لقد روي عن عمر ﷺ وأرضاه أنه قال إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية والمراد من أنه نشأ في الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله يجهل تأثير هدايته وعناية الله يجعله مغيراً لأحوال البشر ومخرجاً لهم من الظلمات إلى النور، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادي[1] فلا يتم فهم عظمة هذا الدين ولا يفهم كتابه المبين إلا بهذه الخلفية الاجتماعية التي تعطي للمفسر تصوراً صادقاً عن حال الناس وعاداتهم وطبائعهم وقت نزول القرآن وسحب هذه الخلفية إلى العصور الأخرى والشرائع التالية حتى يكون الفهم فهماً سديداً بعيداً عن الانحراف أو الخطأ.

(١) انظر المنار ج١ صـ ٢١ بتصرف يسير.

القاعدة السابعة

معرفة علم أحوال البشر

ويقصد بعلم أحوال البشر ، العلم الذي يتناول طبائع الناس عامة وأطوارهم وأدوار اختلافهم فإنه يعرض للخالف ما عرض للسالف والتاريخ كما يقولون يعيد نفسه والسعيد من وعظ بغيره والشقي من وعظ بنفسه.

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أنه يعني بذكر قصص السابقين ويصور أسباب بقائهم أو فنائهم وعوامل قوتهم أو ضعفهم ووقوف المفسر على هذه المعرفة يعطيه قدرة على الوصول إلى مكنون القرآن الكريم . وإذا كانت القاعدة السابقة تعني بدراسة البيئة الاجتماعية والخلفية الحياتية للعرب وهم من نزل فيهم القرآن الكريم فإن هذه القاعدة تعني بدراسة أحوال الإنسان بصفة عامة وذلك يتيح للمفسر أن يصل إلى المعنى القرآني بوضوح وجلاء وقد تناول الأستاذ محمد عبده هذا في حديثه عن الأمور التي لا يتم الوصول إلى أعلى مراتب التفسير إلا بها فذكر «علم أحوال البشر ذلك أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر. قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسننه فيها فلابد للناظر في هذا الكتاب النظر في أحوال

البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناشئ اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر.

.. ويقول الأستاذ الإمام- رحمه الله- أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ** ﴾ [1] وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا؟ وما معني الوحدة التي كانوا عليها وهل كانت نافعة أو ضارة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم. لقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علماً وأمرنا بالنظر والتفكر والسير في الأرض لتفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالاً ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمه) [2].

بهذا الوضوح والجلاء بين الأستاذ الإمام- رحمه الله- مدى أهمية دراسة أحوال الناس وأدوارهم ومناشئ حياتهم حتى تعطي صورة صادقة عن القرآن الذي نزل لصلاحهم وكشف أدوائهم وعظة الناس عن خلافهم . ولا شك أن إدراك المفسر لهذه المعطيات يوسع مداركه ويقوي نظره إلى الكتاب ويجعل أخذه أخذاً عاقلاً مبنياً على أسس ونواميس.

---

(١) البقرة: ٢١٣.
(٢) تفسير المنار ١/ ٢٠/ ٢١.

القاعدة الثامنة

معرفة معهود الخطاب القرآني

نزل القرآن الكريم بلسان العرب تحدث بحديثهم وعالج قضاياهم وعبر بلغتهم على عهد الله تعالى في إنزال الكتب وإرسال الرسل ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَّشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [١] واختار الله تعالى لغة قريش من لغات العرب لينزل بها كتابه الحكيم ودستوره الخالد لاعتبارات متعددة يضيق بحصرها المقام، إلا أن القرآن تميز في خطابه وبيانه وإرشاده وبلاغته بتراكيب معينة وعبارات خاصة تتبعها العلماء قديماً وحديثاً . ووقوف المفسر على هذه التعبيرات يقفه على فهم دقيق لما يعرض له من آيات بينات، وقد وقف العلامة الطاهر بن عاشور على هذه القاعدة وذكرها في المقدمة العاشرة من مقدماته اليانعة التي قدم بها لتفسيره فقال «يحق على المفسر أن يتعرف عادات القرآن من نظم وكلمة. وقد تعرض بعض السلف لشيء منها فعن ابن عباس: كل كأس في القرآن فالمراد بها الخمر وذكر ذلك الطبري[٢] أيضاً عن الضحاك وفي صحيح البخاري في تفسير سورة الأنفال قال ابن عيينة ما سمي الله مطراً في القرآن إلا عذاباً وتسميه العرب الغيث كما قال تعالـــى :

---

(١) إبراهيم: ٤.

(٢) انظر جامع البيان عند تفسيره لقوله تعالى بكأس من معين ج٢٣ ص٥٣ ط دار الفكر بيروت ١٤٠٥

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [١] وعن ابن عباس أن كل ما جاء بها يا أيها الناس فالمقصود به أهل مكة المشركون. وقال الجاحظ في البيان . وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة والجوع والخوف والجنة والنار والرغبة والرهبة والمهاجرين والأنصار والجن والإنس. قلت: والنفع والضر والسماء والأرض وذكر صاحب الكشاف وفخر الدين الرازي أن من عادة القرآن أنه ما جاء بوعيد إلا أعقبه بوعد وما جاء بنذارة إلا أعقبها ببشارة ويكون ذلك بأسلوب الاستطراد والاعتراض لمناسبة التضاد. وفي الكشاف في تفسير قوله تعالى ﴿ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴾ [٢] جئ به ماضياً على عادة الله في أخباره وقال فخر الدين الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ ﴾ [٣] وعادة الكتاب الكريم أنه إذا ذكر أنواعاً كثيرة من الشرائع والتكاليف أتبعها إما بالإلهيات وإما بشرح أحوال الأنبياء وأحوال القيامة ليصير ذلك مؤكداً لما يقدم ذكره من التكاليف والشرائع[٤] ثم مضى ابن عاشور رحمه الله يؤكد على هذه القاعدة من قواعد فهم القرآن الكريم واستيعاب مراده فإنه تتبع بنفسه هذا النمط من تعبيرات القرآن فوجده يمضي على طريقة مفردة . ومن هذه التعبيرات التي حصرها ابن عاشور (أن كلمة هؤلاء إذا لم يرد بعدها عطف بيان يبين المشار إليهم فإنها

(١) الشورى: ٢٨.
(٢) الصافات: ٥٠، ٥١.
(٣) المائدة من الآية ١٠٩.
(٤) انظر التحرير والتنوير جـ١ صـ ١٢٤، ١٢٥.

يراد بها المشركون من أهل مكة كقوله تعالي "**بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ**"(١) وقوله "**فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ**"(٢) وقد استقريت أنا من أساليب القرآن أنه إذا حكي المحاورات والمجاوبات حكاها بلفظ قال دون حرف عطف إلا إذا انتقل من محاورة إلى أخرى) (٣) . ولا شك أن الوقوف على أسلوب القرآن الكريم وانفراداته يقف المفسر والقارئ على خير عظيم ويضع يده على مفاتيح الفهم ووسائل الإدراك.

(١) الزخرف: ٢٩.
(٢) الأنعام: ٨٩.
(٣) التحرير والتنوير ١/ ١٢٥.

القاعدة التاسعة

معرفة قواعد اللغة العربية

نزل القرآن الكريم بلسان العرب وتميز بخصائص تلك اللغة التي أعلى الله تعالى قدرها وخلدها بل أ نزل كتابه الخالد بها من هنا كان فهم اللغة وقواعدها ومعرفة أساليبها باباً من أبواب فهم القرآن ومعرفة مقاصده فإن العربية تميزت بتراكيب معينة عن باقي لغات اللسان لا تخفى على صاحب النظرة العابرة فضلاً عن المتأنية من هنا عني علماؤنا بالتأكيد على أن فهم اللغة سبيل إلى فهم القرآن. فيرى عمدة المفسرين ابن جرير الطبري – رحمه الله– أن اللغة وفهمها شرط لفهم القرآن الكريم ولا يمكن أن يفهم بالتقصير فيها . فيقول – وهو يتحدث عن أهمية اللغة – ولذلك «وأول ما نبدأ به من القيل في ذلك الإبانة عن الأسباب التي البداية بها أولى وتقديمها على ما عداها أجدى وذلك البيان عما في آي القرآن من المعاني التي من قبلها يدخل اللبس على من لم يعن برياضة العلوم العربية ولم تستحكم معرفته بتصاريف وجوه منطق الألسن السليقة الطبيعية».[1] فتعلم العربية أمر لابد منه لفهم المراد من القرآن الكريم إذا كيف يفهم خطاباً من لم يدرك خصائص لغته ولم يتعرف مزايا بيانه . وعلى قدر تفاوت الناس في فهم خصائص العربية تتفاوت فهومهم وعلومهم بالقرآن الكريم ولا يقصد بالعربية مفردات ألفاظ فحسب أو التراكيب فقط أو البيان والمعاني

(١) جامع البيان ١/من المقدمة

والأساليب إنما يعني جموع ذلك وغيره مما له صلة في بيان القرآن وإيضاح مراده «إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقاً لفهم معانيه ويدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة وتعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي وهي متن اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع في أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم ويدخل في ذلك ما يجري مجرى التمثيل والاستئناس للتفسير من أفهام أهل اللسان أنفسهم لمعاني آيات غير واضحة الدلالة عند المولدين) [١] وقد أكد الإمام الزمخشري على ضرورة علمي المعاني والبيان لفهم القرآن فقال في مقدمة تفسيره (علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإطالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برّز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية أحفظ والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه واللغوي وإن علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني) [٢] وكذلك صاحب المفتاح يؤكد على أهمية علم المعاني والبيان لفهم القرآن بقوله لا أعلم في باب

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٨.
(٢) الكشاف في المقدمة ج١ ١٥و١٦ ط دار المعرفة بيروت لبنان بدون صـــ وانظر التحرير والتنوير ١/ ١٩.

التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله تعالى من كلامه من علمي المعاني والبيان. ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه، ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة[١]، ولا تجد مصلحاً وضع القرآن تصب عينيه في إصلاحه إلا وربط ذلك يكون اللغة هي وسيلة فهمه القرآن وإدراك مراقبه ولعل في كلام حكيم الإسلام الأستاذ محمد عبده عقبه في ذلك إذا يؤكد رحمه الله (يقاد الإسلام لا يكون إلا بفهم القرآن فهماً صحيحاً ولا يكاد لفهم القرآن إلا بحياة اللغة العربية فإن كان باقياً في بعض الأعاجم فإنما بقاؤه بوجود بعض العلماء العارفين من التفسير ما يكفي لرد الشبهات عن القرآن عندهم وبيضاد فقه العامة فهم ربما يقولونه تقليداً لهم فيه أو بعدم عروض السنة لهم من دعاة الأديان الأخرى مع تأثير الوراثة والتقليد من قبيل ما يسمى في العلم الطبيعي بحركة الاستمرار، ولهذا اتفق علماء الإسلام من العرب والعجم على حفظ اللغة العربية ونشرها وكان العلم والدين في أدع القوة بحياة اللغة العربية) [٢] وخلاصة القول أن معرفة العربية وخروجها ومفرداتها وأساليبها يعين القارئ والمفسر على الفهم الصحيح ويوضح أمامه الرؤية التي تبعاها من القرآن الكريم.

---

(١) مفتاح البلاغة صـ وانظر التحرير والتنوير ١/ ٢٠.
(٢) انظر تفسير المنار جـ١ صـ ٢٤، ٢٥ وانظر جـ١/ ٢٠.

القاعدة العاشرة

معرفة موضوع القرآن

ومقاصده الأساسية

إن معرفة أهداف القرآن الكريم ومقاصده تقصر الطريق على الباحثين عن المعرفة القرآنية والفهم القرآني ذلك لأن إدراك الهدف من أي شيء سبيل يوصل إلى إدراك المراد منه.

(إننا قبل أن ننظر في كتاب ما عن مسألة من مسائل العلم تشغل بالنا ننظر في موضوع الكتاب فمثلاً لو أن إنسانا أراد أن يبحث في قاعدة نحوية لرجع إلى كتاب من كتب النحو ولا نتصور أن يأخذ كتاباً في علم النفس ويبحث فيه عن تلك القاعدة النحوية.. ولو فعل ذلك لكان جاهلاً وموضوع القرآن هو الإنسان والحياة الإنسانية ولقد عالج القرآن الكريم قضية الإنسان وحدد أساس نجاحه وسعادته وحدد أسباب حزنه وشقائه ويفهم من آياته البينات المعجزات أن التصورات البشرية التي وضعها الإنسان عن نفسه وعن الكون والحياة والخالق مدفوعاً بدراسته السطحية ومتأثراً بالأهواء الظاهرة والخفية تصورات باطلة مهلكة وكذلك فإن المواقف التي اتخذها على أساس تلك التصورات باطلة أيضاً ومهلكة) [1] ويرفض صاحب الظلال بحق أن يكون القرآن كتاب علم فلكي أو كيماوي وطبي كما يحاول أن يصوره البعض ويؤكد

(١) بحوث في أصول التفسير د محمد لطفي الصباغ ط المكتب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨، صـ ٢٣٦، ٢٣٧.

على أن موضوع القرآن الأساسي ومجاله الرئيسي هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية وأن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه أن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته .... إن مادة القرآن التي يعمل فيها هي الإنسان ذاته تصوره واعتقاده ومشاعره ومفهوماته وسلوكه وأعماله وروابطه وعلاقاته...

.. إن القرآن كتاب كامل في موضوعه وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان والقرآن يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يستخدم هذه الطاقات المذخورة فيه بعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط[1] إن إدراك المفسر والقارئ لهذه الكليات الجامعة والقضايا والأهداف الواضحة لموضوع القرآن يجعل نظرة ينصب على الموضوع الأساسي الذي نزل له القرآن الكريم وهو الإنسان والإنسانية ذلك الذي أراد الله تعالي له أن يكون خليفته في أرضه فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وأرسل له رسله وأنزل له كتبه يتعهده حيناً بعد حيناً حتى يخرج من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى.

---

(١) انظر الظلال جـ صـ وانظر بحوث في أصول التفسير ٢٣٥، ٢٣٦.

وكما أن فهم موضوع القرآن معين على فهم القرآن الكريم فهم المقاصد الأساسية التي يبقياها القرآن الكريم يعين القارئ والمفسر على إدراك خلفيات هذه المقاصد والكليات التي نزل القرآن ليرسخها من خلال أساليبه المتعددة وطرائقه المتنوعة من القصص إلى الوعظ والإرشاد والتوحيد على الأمر أو النهي فمن يلازم لمن يدبر أن يحسن الفهم عن الله عز وجل ورسوله ﷺ وألا يكتفي بالوقوف عند حرفية النصوص ويحمد على ظواهرها ولا يتأمل فيما وراء أحكامها من علل وما تهدف إليه من مقاصد وما سعي إلى تحقيقه من مصالح مادية أو معنوية أو فردية أو اجتماعية دنيوية أو أخروية.. إن مهمة الراسخين في العلم أن يبحثوا عن مقاصد الشرع ومن خلال النصوص بعد أن يتجولوا في آفاقها ويغوصوا في أعماقها ويربطوا جزئياتها لكلياتها ويردوا فروعها إلى أصولها ويشدد أحكامها بعضها ببعض بحيث تنسق وتنظم انتظام الحبات في عقدها ومع اليقين بأن الشرائع القراء لا تفرق بين فيا تلين كما لا نوي بين مختلفين [1] وإدراك هذه المقاصد القرآنية الجادة يعصم العقل الذي يتناول الآيات من أن ينشط بها في التفسير أو ينمو بها إلى غير مسارها من هنا عني عدد غير قليل من الأئمة المبرزين والعلماء المعدودين بذكر العلاقة بين صحة الفهم القرآني وإدراك المقاصد الأساسية للقرآن. ومن هؤلاء العلامة الطاهر ابن عاشور... رحمه الله- إذ تناول ذلك في مقدمات تفسيره

(١) انظر المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة جـ١ مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م لأستاذنا الدكتور يوسف القرضاوي.

الثر – التحرير والتنوير فذكر أن (المقصد الأعلى من القرآن هو صلاح الأحوال الفردية والاجتماعية والعمرانية فالصلاح الفردي يعتمد على تهذيب النفس وتزكيتها ورأي الأمر فيه صلاح الاعتقاد لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير نم صلاح الشريعة الخاصة وهي العبادات الظاهرة كالصلاة والباطنة فالتخلف يترك الحسد والحقد وكلير، وأما الصلاح الجماعي فيحصل أولاً من الصلاح الفردي إذا الأفراد أجزاء المجنح ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه ومن شيء زائد على ذلك وهو ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه بعضهم من مزاحمة الشهوات ومواتية القوى النفسانية وهذا هو علم المعاملات ويعبر عنه عند الحكماء بالسياسية المدنية، وأما الصلاح العمراني فهو أوسع من ذلك إذ هو حفظ نظام العالم الإسلامي وضبط تصرف الجماعات والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع ورعي المصالح الكلية الإسلامية وحفظ المصالح الجازمة عند تعارضه المصلحة القاصرة لها ويسمى هذا بعلم العمران وعلم الاجتماع) [١] ثم عدد الشيخ رحمه الله عدداً من المقاصد الكلية والأهداف الأساسية التي حرص القرآن على إبرازها والتي لا يمكن لمفسر أو قارئ أن يستوعب معاني القرآن بقدر طاقته البشرية إلا إذا أمر بها فقال «إن هذه المقاصد الأساسية التي جاء القرآن لمنيباتها ويجب على الأخذ في هذا النية ثمانية وهي: الأول إصلاح في الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح وهذا أعظم سبب لإصلاح في الخلق لأنه يزيل عن النفس

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣٨.

عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك..... وما بينهما وقد أشار إلى هذا المعني قوله تعالى ﴿ **فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ** ﴾ [1] فاستدلالهتين زيادة تثبيتهم وليس هو من فعل الآلهة ولكنه نم أثار الاعتقاد بالآلهة.

الثاني: تهذيب الأخلاق قال تعالي"**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**"[2].. وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بله خاصة الصحابة وقال أبو أفراس الهذلي مشيراً إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير.

فليس كعهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسل

وعاد الفتى كالكهل ليس بفائل سوى العدل شيئاً فاستراح العواذل

أراد بإحاطة السلاسل بالرقاب أحكام الإسلام والشاهد في قوله وعاد الفتى كالكهل.

الثالث التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة والرابع سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها فالإشارة إلى تكوين الجامعة بقوله ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ**

(١) هود: ١٠١.
(٢) القلم اية ٤

فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا ﴾ [١] والخامس القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾[٢] السادس التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها وذلك علم الشرائع وعلم الأخبار وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب وقد زاد القرآن الكريم على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين وفي دعوته إلى النظر ثم نوه بشأن الحكمة فقال ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴾[٣] وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل إنما قصاري علومهم أمور غير بينة وكان حكماؤهم أفراداً[٤].

(١) آل عمران: ١٠٣.
(٢) يوسف: ٣.
(٣) البقرة: ٢٦٩.
(٤) التحرير والتنوير ٤١/١ .

القاعدة الحادية عشر

فهم حقائق الألفاظ المفردة

لا ينكر إنسان أن القرآن نزل بلسان العرب ولغتهم واستخدم ألفاظهم وتعبيراتهم وصور أدق تصوير وأرقاه ما يريده من حكم وآداب وقيم ومثل كما أنه من المسلم لغة أن اللغة أي لغة تشبه الكائن الحي في نموه وتطوره وارتقائه من طور إلى طور ومن مرحلة إلى مرحلة وهذا كلام واسع الفصول طويل الأكمام والذيول يدركه من ينظر في كتب اللغة وفقهها معرفة وثقافة ويعايشه من يرصد تلك الظاهرة حركة وواقعا وقد اختار القرآن لغة قريش لينزل بها لأنها أرقى لغات العرب أو لهجاتهم بتعبير أدق لكن للألفاظ المفردة دلالات قد تختلف تقترب أو تبتعد من عصر إلى عصر ومن زمان إلى زمان وحتى يفهم المفسر فهما صحيحا صائبا عليه أن يدرك زمن نزول هذه الألفاظ المفردة ودلالاتها الآنية واستخداماتها في عصر النزول فدلالة المفردة لا تكون على طول المدى دلالة واحدة لا تتغير ولا تتطور وإنما تتغير شيئا فشيئا من عصر إلى عصر ومن بيئة إلى بيئة في نفس العصر وذات الزمان ووصول المتعامل مع القرآن إلى المعنى الدلالي الأصيل الذي نزلت المفردة القرآنية عليه وقت نزولها يعينه على الفهم الصائب والإدراك السليم وقد عني بهذه الفكرة ونظر لها الأستاذ أمين الخولي – رحمه الله – وهو رائد المدرسة البيانية التي نسجت على منواله ومن أبرز أفرادها د عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ

والدكتور شكري عياد وقد حاولت بنت الشاطئ تطبيق هذه النظرية في دراساتها شيئا وحاول الدكتور شكري - صبورا أن يسلك هذا المنهج في أطروحته عن يوم الدين والحساب والمدرسة البيانية في مجمل منهجها حاولت أن تدرس القرآن عبر مراحل منها دراسة المفردة في زمان نزولها ثم دراستها في طول القران كله ثم دراستها في السياق القرآني حتى يكون فهم المفسر أقرب ما يكون إلى مقصود القرآن . وقد عرض الأستاذ الإمام محمد عبده – رحمه الله – لهذه الجزئية وأثرها في فهم القرآن الكريم فذكر عند حديثه عن مراتب التفسير وأنها متعددة أن أعلى مرتبة من مراتب التفسير لا تتم إلا بأمور منها (فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن بحيث يحقق للمفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن النزول لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقا أو على وجه الخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى : ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ** ﴾ [1] فما هذا التأويل يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب فكثيرا ما يفسر المفسر ون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الأولى فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن

(١) الأعراف من الآية ٥٣ .

نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره ..ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه وقد قالوا إن القرآن يفسر بعضه بعضا وإن أفضل قرنه تعين على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته)[1] ولا يخفى أن هذا الكلام في غاية البيان عن ضرورة دراسة المفردة في عصر نزولها واستخدامها الأول ودراستها من خلال دورانها في القرآن الكريم فقد ترد المفردة في مواطن متعددة بمعان متعددة كما سبق في كلام الشيخ – رحمه الله – وكما هو واقع ملاحظ فلفظة "خير " مثلا الواردة في أكثر من موطن في القرآن وردت في كل موطن بمعنى فقد وردت في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ** ﴾ [2] وهي تعني ما يتركه المتوفى من مال ومتاع ونحوه ووردت في سورة القصص في قوله تعالى : ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾[3] بمعنى الطعام والشراب ووردت في سورة ص في قوله تعالى : ﴿ **فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ [4] بمعنى الخيل التي شغل بها سليمان عليه السلام عن الصلاة وفي سورة العاديات في قوله

---

(٢) المنار ١/٢٠،١٩ .
(١) البقرة من الاية ١٨٠
(٢) القصص ٢٤
(٣) ص ٣٢

تعالى : ﴿ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [1] بمعنى المال وهكذا تتعدد المعاني المراد ة من اللفظة القرآنية حسب السياق الذي ترد فيه ووعي المفسر والقارئ والمتعامل مع القرآن بهذه القاعدة يوفر عليه الكثير من البعد عن المراد ويقرب له غرضه المقصود وهدفه المنشود والله المستعان

(٤) العاديات اية ٨

المحور الثالث

عقبات في طريق الفهم

وإذا كنا قد عرجنا على بعض القواعد التي تعين على الفهم السليم لمضامين القرآن الكريم وهي كل من كثر وغيض من فيض مما يحتاج إلى دراسة متصلة موسعة فإن هناك عقبات كأداء تقف حجر عثرة أمام الإنسان في طريق فهم القرآن الكريم ومن أبرز هذه العقبات ما يلي .

١- عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب

فإن ذلك يقطع على الإنسان طريق الفهم ويجعله يصدر أحكاماً مسبقة بناء على تصورات خاضعة لمذهبه أو نزعته الكامنة في عقله ولا يتيح له الفرصة ليتعرف على مراد الله تعالى من كلامه بناء على ما لديه من ميل عاطفي تتبعه ميل فكري إلى قناعة معينة ورؤية مسبقة فيبادر إلى المصادرة على الفهم السليم والإدراك الصحيح ولو كان قد قدم إلى القرآن الكريم خالي الذهن إلا من وسائل الفهم الصحيح وألقى عقله لهذا الدستور الإلهي الخالد يشكله القرآن كيف شاء لانتفع أيما نفع وفهمه أيما فهم لكنه قدم إلى القرآن الكريم ولديه رؤى سابقة وفهوم يقدمها بين يدي الفهم الصحيح للقرآن الكريم، بل قد يلوي مراد الآية إلى غير سبيلها ويحول مجراها إلى غير طريقها حتى توافق هواه وتأتي مطابقة لفهمه السقيم وصدق فيه قوله السابق

عاب التفقه قوم لا فهوم لهم وما عليه إذا عابوه من ضرر
ماضر شمس الضحى فى الأفق ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر

وقوله

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفهم طعم الماء من سقم

وقد ذكر صاحب التحرير والتنوير أن من له ميل إلى نزعة أو مذهب أو علة يتأول القرآن على وفق رأيه ويصرفه عن المراد ويرغمه على تحمل ما لا يساعد عليه المعني المتعارف فيجر شهادة القرآن لتعزيز رأيه ويمنعه عن فهم القرآن حق الفهم ما قيد عقله من التعصب عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير مذهبه حتى إن لمع له بارق حق وبداله معني يباين مذهبه حمل عليه شيطان التعصب حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقدك كمن يعتقد من الاستواء على العرش التمكن والاستقرار فإن خطر له أن يعي قوله تعالى "**الْقُدُّوسُ**" [الحشر: ٢٣] أنه المتنزه عن كل صفات المحدثات حجبه تقليده عن أن يتقرر ذلك في نفسه ولو تقرر لتوصل فهمه فيه إلى كشف معني ثاني أو ثالث ولكنه يسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته مذهبه وجمود الطبع على الظاهر مانع من التوصل اللغوي[1] وقد وصف حجة الإسلام الغزالي هذا الذي حال ميله إلى نزعته ومذهبه بينه وبين الفهم بأنه (شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير

(١) انظر التحرير والتنوير جـ١ صـ٣١ ط دار سحنون بيروت. الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور

معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه فإن لمع يدق على بعد وبداله معني من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلك غرور الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله. ولمثل هذا قالت الصوفية إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية قررها المتعصبون للمذاهب وألقوها إليهم أما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى الطلب؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً. (١)

٢- النظرة الجزئية للقرآن الكريم

إن النظرة الجزئية لآيات القرآن الكريم أو التصور الموضعي تصور ناقص يمثل عقبة من عقبات الفهم القرآني ذلك أن القرآن الكريم صورة متشابكة الأجزاء متلاحمة الأعضاء لا يغني جزء منها عن جزء آخر بل كمل بعضها بعضاً وتؤدي في النهاية إلى فكرة واضحة وقيمة مكتملة يخدم بعضها بعضاً وإطلالة سريعة على شريحة معينة من الآيات الكريمة تدلك بجلاء كيف تناول القرآن الكريم حديثاً عن القراءة والخلق وطغيان الإنسان في تلائم تام وانسجام كامل (فالقرآن غذاء روحي مكتمل العناصر، وكما أتناول على المائدة مجموعة من السكريات والنشويات والدهنيات وما إلى ذلك في طعام واحد أو في أغذية واحدة في وجبة واحدة

(١) إحياء علوم الدين جـ١ صـ ٣٩٨ دار المكتبة العصرية صيدا بيروت ط أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م لحجة الإسلام الإمام الغزالي.

فكذلك يتقدم لنا القرآن برسالة حياة شاملة لا تدع جزءا منه إلا ويمتد إليه ويجري الوحي الإلهي خلال هذا النسق القرآني كما تجري الدماء داخل العروق لتشمل الرأس والقدم الجهاز يدور في كل شيء ليعطي الحياة كل شيء.. إن الرؤية القرآنية لا يمكن أن تكون إلا حضارة كاملة.. ومن المستحيل أن أنظر إلى القرآن النظرة الجزئية التي تجعلني أعيش في جانب وأنسى الجانب الآخر كما لا يمكن أن يتكون الدم من كريات حمراء فقط أو بيضاء فقط وبعض العناصر المعدنية فقط التي تسير في الدم ولا يكون دماً إلا بها.. إن النظرة الشاملة للقرآن هي النظرة الصحية للدراسات القرآنية ولا يمكن الرضي بنظرة جزئية لأنها عندما سارت في الفكر الإسلامي نشأ عنها ما يشبه الجسم المشلول في بعض أجزائه أو في بعض أجهزته مع بقاء أجهزة أخرى حية إنه لا يستطيع أن يؤدي وظيفته ما دام الشلل أو الخطر يجمد بعض الأجهزة أو بعض الأعضاء[1] فاجتزاء القرآن يؤدي إلى تشويه القضية الكاملة وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقول إن اليد وحدها إنها إنسان أو القدم وحدها إنها إنسان فكذلك لا يستطيع أن يدرك الفهم الصحيح للقرآن الكريم إلا بالنظرة الكاملة التي تتعدى التجزيئ في الحكم ويترقى من النظرة الموضعية إلى النظرة الموضوعية

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـ ٧١ ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م لأستاذنا الشيخ محمد الغزالي بتصرف يسير.

من آثار النظرة الجزئية للقرآن الكريم

- من هنا فإن النظرة الجزئية تكون آثارها وخيمة على الفكر الإسلامي فهي تفيد من الآيات ما لا تدل عليه الآيات وتنسب إلى القرآن أحكاماً ليست من أحكام القرآن، وما ذلك إلا لأنها نظرت نظرة موضعية ولم تطلق نظرها في الموضوع كله فوقفت عند حد لا يكتمل به المراد وذلك أوقع الفكر الإسلامي قديماً وحديثاً في مسائل شائكة بل أوقع بعضهم أحياناً في فهوم تناقض تماماً مراد القرآن الكريم خذ مثلاً فهم بعضهم لقوله تعالى ﴿ **وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [١] التي أخذ منها أن العمل مخلوق لله تعالى «ونسينا أن هذا الكلام لو صح ما كان عبدة الأصنام مسؤلين لأنهم إذا كانوا مخلوقين لله وشركهم ووثنيتهم مخلوقة لله فما عليهم من ذنب لكن نحن أخذنا ظاهر الآية وقطعناها من سياقها من قبل ومن بعد وجعلناها هكذا دليلاً لرأي باطل.. إنها آفة لتجزئ و بعضهم بلغت به النظرة الجزئية أن يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم وإذا سألتهم عن الدليل يقولون قوله تعالى ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً** ﴾ [٢] ويقف من ثم لا يكمل الآية لأن إكمال الآية ﴿ **كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل وليس هناك ما يستدعي هذا بل سميت آية السيف بذلك من المستثني قبل الاستثناء في قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿ **وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِّنَ**

---

(١) الصافات: ٩٦.
(٢) التوبة من الآية: ٣٦.

الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [١] وانتهي الأمر وأخذ منها البراءة المطلقة أما الاستثناء الذي جاء ووضح حدود البراءة ومعناها والمجال الذي لا يجوز أن نتعداه وهو قوله تعالى ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [٢] نسيناها اعتبرنا المستثني منه أصبح القتال عاماً بدون وعي للمعني نفسه،وما أوقع الناس في مثل هذا الفهم المشوه للآية الكريمة إلا النظرة الجزئية التي أضاعت المعنى وبترت الفهم حتى أدى إلى غير المراد منه، وإذا نظرنا إلى آية أخرى في نفس السورة وهي قوله تعالى ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ [٣] وعرفنا أن ما ذكر قبلها من آيات أمر عام في جميع الأحوال وفي كل الأشخاص فهم ذكر تعالى إن المصلحة إذا اقتضيت تغريب بعض جاز بل وجب ذلك فقال ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ** ﴾ طلب منك أن تجيره وتمنعه من الضرر لأجل أن يسمع كلام الله وينظر حالة الإسلام ﴿ **فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللهِ** ﴾ ثم إن أسلم فذالك وإلا فأبلغه مأمنه أي المحمل الذي يأ من فيه والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون فربما كان

(١) التوبة: ٣.
(٢) التوبة: ٤.
(٣) التوبة: ٦.

استمرارهم على كفرهم لجهل منهم إذا زال اختاروا عليه الإسلام فلذلك أمر الله رسوله وأمته أسوته في الأحكام أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله»[١] ذلك أن كمال إنسانية الإنسان أن يخلي نفسه حتى يفكر فيما يصلحه ويفيده من هنا أسقط الله التكليف عن المكره حال الإكراه لأنه فقد عندئذ مؤهلاً من مؤهلات التكليف ولم يعد أهلا له.. من هنا نري أن (شمول النظرة أمر لابد منه لكي تعطي الأحكام الصحيحة من الناحية الفقهية التشريعية فإذا أدركنا أن الإنسان مخلوق سوي له سمع وبصر وله فؤاد ولابد أن تستغل هذه الوظائف جميعاً في تصحيح إنسانيته والعيش بها أدركنا أنه لا يمكن أن يتم هذا الذي قاله القرآن الكريم في مكان آخر مع إباحة الإكراه فكيف تكره أحداً إنك بهذا تلغي إنسانيته وما فائدة الحكم الشرعي إذا فقد الإنسان الذي يطبق الحكم الشرعي [٢] هذا وقد دعي القرآن الكريم المسلمين إلى أن يأخذوا الإسلام والقرآن أول مصادره كاملاً غير منقوص ويدخلوا فيه كله فقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴾ [٣] أي ادخلوا جميعكم في الإسلام ادخلوا في الإسلام جميعاً ولا تجتزؤه كما فعلت الأمم السابقة وقد رصد الله تعالى سببا من أسباب البوار والهلاك للأمم الماضية بأنهم أخذوا القرآن عضين فقال تعالى ﴿ **كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ * الَّذِينَ**

---

(١) تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ط أولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠م ط الرسالة صـ ٣٢٩ للشيخ عبد الرحمن السعدي.
(٢) كيف نتعامل مع القرآن ٧٣، ٧٤ بتصرف يسير.
(٣) البقرة: ٢٠٨.

جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [١] أي جعلوه أجزاء أخذوا بعضه مما يوافق هواهم وتركوا ما لا يروقهم ولا يقبلونه، ونعى سبحانه وتعالى عليهم مسلكهم هذا الذي يجتزؤن به الوحي فيأخذون بعضه ويتركون بعضه فقال : ﴿ **وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [٢].

وقال: ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾ [٣].

إن القرآن الكريم وحدة لا تتجزأ وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة بين بعضها وبعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد فبعضها يؤثر في بعض ولا يجوز أن يفصل جزء أو أكثر عن سائر الأجزاء فالعقيدة تغذي العبادة والعبادة تغذي الأخلاق وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة ولا يسوغ في منطق الإيمان ولا منطق العقل أن يقرأ المسلم قول الله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**

(١) الحجر: ٩- ٩٣.
(٢) الأنعام: ٩١.
(٣) المائدة: ١٥.

كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [١] فيقول سمعنا و أطعنا ولكن إذا قرأ في السورة نفسها قوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾ [٢] قال سمعنا وعصينا لأن الآية الأولي في مجال العبادات والأخرى في مجال العقوبات ومعني هذا أن الإنسان أصبح معقباً لحكم الله تعالى يأخذ منه ويدع بهواه وحده والله لا معقب لحكمه... إن من فتح المصحف وقرأ سورة الفاتحة أو أوائل البقرة وجد أول ما يطالعه وصف المتقين المهتدين بكتاب الله بأنهم ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾ [٣] .فقرن بين الجانب الاعتقادي (الإيمان بالغيب) والجانب الشعائري (إقامة الصلاة) والجانب الاقتصادي (الإنفاق مما رزقه الله) وهذا هو منهج القرآن الربط بين جوانب الحياة كلها برباط لا ينفصم لأنها هكذا في واقع الحياة وإذا كانت الحياة كلها مترابطة متلازمة فلابد أن تكون الأحكام التي تشرع لها كلها مترابطة متلازمة كذلك وذلك هو حكم ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ**قش [٤] [٥]

٣- الوقوف عند حسن التلاوة وجمال الصوت

والوقوف عند ترنيم الصوت وحده والعكوف على بهائه وروائه دون النظر في مرامي الآيات الكريمة من عقبات الفهم

(١) البقرة: ١٨٣.
(٢) البقرة: ١٧٨.
(٣) الأنفال: ٣.
(٤) المائدة: ٥.
(٥) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة صـ ٣٣.

وحجاب بين الإنسان وإدراك رؤية القرآن الكريم للأشياء، وإن آفة الأمة المسلمة- ونحن من أفرادها- أنها شغلت حيناً من الدهر وما تزال تشغل بجمال الصوت وحسن الأداء على حساب الفهم السليم والإدراك القويم وما تراه في واقع الناس كلهم أو بعضهم من وقوفهم عند حد الحروف والمطالع والوقوف والفواصل لعلامة مرض سرى ويسرى في الأوصال، لقد كان الصحابة وسلفنا الصالح يقف الفرد منهم عند الحدود و الحروف وقد يردد الآية مراراً ويعيدها تكراراً حتى تعمل في النفس عملها وتؤدي دورها كما تؤدي الأدوية الفاعلة في الأمراض المتوطنة- عملها اجتثاثا وإزالة وهدماً وبناء فتغيرت أحوالهم وتبدلت أعرافهم على مراد القرآن الكريم- يؤكد ابن قدامه رحمه الله على تجنب الإنسان لهذا المانع من موانع الفهم وتلك العقبة التي تقف دون الوصول إلى مراد الله تعالى فيقول وليتخل التالي عن موانع الفهم مثل أن يخيل إليه أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه من خرجه فيصرف همته عن فهم المعنى[1] وما تراه من واقع المسلمين من الحرص على إقامة الحروف وعدم الوقوف على المعاني ليس إلا صارفاً من صوارف الفهم ومانعاً من موانع التدبر الحقيق والإدراك العميق لمرامي القرآن الكريم. قد تسمع قارئاً يقرأ آيات العذاب والعقاب وترى من يتمايل حوله طرباً ولو فهم هذا السامع المعنى المقصود لبكى أو لتباكى بدل أن يذهب مع حلاوة الصوت على حساب حلاوة المعنى ولاشك أن القراءة الصحيحة القويمة طريق إلى

(١) مختصر مناهج القاصدين صـ ٦٧، ٦٨.

الفهم الصحيح وباب من أبوابه وقد حث النبي ﷺ أصحابه قولاً وعملاً على تجويد أصواتهم بالقرآن فيسمع من أبي موسى قراءته ويقول لو رأيتني وأنا أسمع قرىءتك آنفا فيقول ﷺ وأرضاه لو أني أعلم يا رسول الله لحبرته لك تحبيراً، ويطلب من أبيّ أن يقرأ عليه فيقول «أقرأ عليك وعليك أنزل يقول ﷺ إني أحب أن اسمعه من غيري ويرشد ﷺ إلى ذلك قولاً فيقول «زينوا القرآن بأصواتكم» والقرآن الكريم نفسه قد حث على قراءة القرآن حق القراءة وتلاوته حق تلاوته فأثني عليهم وأعلى شأنهم فقال تعالى ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ** ﴾ [١] وكانت أول كلمة نزلت من القرآن الكريم هي "**اقْرَأْ**" [٢] لأن القراءة هي مفتاح الفهم وتجويد هذه القراءة معين من معيناته وسبيل من سبله الموصلة إليه لكن الملاحظ أننا تمهرنا في قراءة القرآن ووقفنا عند حد الحروف والألفاظ ولم نسبر أغوارها بالصورة المراد ة والغرض المقصود فخلطنا بين الوسيلة والغاية والأسباب والمقاصد وكأن القراءة صارت هدفاً في ذاتها وغاية في نفسها حتى سرت إلينا علل الأمم السابقة وأمراضهم يكون بين أيديهم الكتاب ولا يعلمون منه إلا أماني كما قال تعالى: ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ** ﴾ [٣] يقول

(١) فاطر: ٢٩.
(٢) اقرأ الآية: ١.
(٣) البقرة: ٧٨.

ابن تيمية رحمه الله عـــن ابن عباس وقـــتادة في قوله : ﴿ **وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ** ﴾ أي غير عارفين بمعاني الكتاب يعلمونها حفظاً بلا فهم لا يدرون ما فيها.. وقوله "**إِلاَّ أَمَانِيَّ**" أي تلاوة لا يعلمون فقه الكتاب إنما يقتصرون على ما يتلى عليهم».«والأمية العقلية هذه تسود الأمة في حال التقليد والغياب الحضاري والعجز عن تدبر القرآن والتعامل مع الأحداث واتخاذ المواقف واكتشاف سنن الله في الأنفس والأفاق وحسن تسخيرها ومعرفة كيفية التعامل معها والنفاذ من منطوق النص و ظاهره إلى مقصده ومرماه والتدخل حين نعلم السنة وأنها تتكرر ولا تتبدل فنستطيع توجيها إلى حيث نريد ونفيد فنصل إلى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب إلى الله أو نفر من قدر الله إلى قدر الله كما قال عمر بن الخطاب ﷺ، يقول ابن القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله». إنها الأمية العقلية التي نعيشها اليوم مع القرآن والتي تعني ذهاب العلم على الرغم من تقدم فنون الطباعة ووسائل النشر وتقنيات التسجيل[1] وهذه الأمية العقلية التي صارت حجاباً للفهم وحاجزاً عن الوعي والإدراك لمضامين القرآن الكريم ليست وليدة عصر من العصور بل وليدة عدم الترتيب بين الغاية والوسيلة فالقراءة التي هي وسيلة الفهم أصبحت في حد ذاتها هي الغاية والمبتغى وصرنا إلا من رحم الله- مبلغ علمنا أن نجود الحروف ونحقق صفاتها ومخارجها فكان الاهتمام بالشكل على حسب

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـــ ١٤، ١٥. من تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة.

المضمون فقد يعيب الإنسان أي عيب إذا رقق المفخم أو فخم المرقق أو لحن جليا أو خفيا ولا يعاب إذا لم يدرك بدهيات القضايا في القرآن الكريم أو المعاني الظاهرة المتبادرة لأن طريقة التعلم غرست فينا هذا الجانب ولا يقول أحد بأن جودة الأداء ليست غرضاً ولا هدفاً لكن هناك فرق بين غرض هو مقدمة لغيره وبداية لسواه وغرض هو المقصود الأسمى للقرآن الكريم وقد ذكر ابن قدامة أن المبالغة في أداء الحروف صارف من صوارف الفهم ومانع من موانعه بل تلبيس من تلبيس الشيطان بقوله (وليتخيل التالي عن موانع الفهم مثل أن يخيل له الشيطان أنه ما حقق تلاوة الحرف ولا أخرجه مخرجة فيصرف همته عن فهم المعني) [١] وقد وصف حمزة وهو أحد أئمة القراء المعروفين القراءة بأنها كالبياض فإن زادت أصبحت برصا وإن قلت أصبحت سمرة) [٢] إن علاقة المسلمين بالقرآن علاقة تستوجب السؤال والدهشة وتسترعي النظر وتثير الانتباه فالأمة التي نزل فيها اقرأ لا تكاد تقرأ و الأمة التي نزل بها ﴿ **وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ** ﴾[٣] لا تكاد تعرف عن الحديد شيئاً ذا بال وأمة (انظروا) لا تكاد تنظر وأمة (قل سيروا في الأرض) لا تكاد تسير وإن سارت فهو سير للمتع الفانية والشهوات الذاهبة (إن من عدة قرون ودعوة القرآن مجمدة ورسالة الإسلام كنهر جف مجراه أو بريق فقد سناه و

---

(١) مختصر مناهج القاصدين صـ ٦٧، ٦٨.
(٢) معرفة القراء الكبار صـ٦٩ ط دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط أولى ١٤١٧-هـ مـ للإمام الذهبي١٩٩٧
(٣) الحديد ٢٥

الأمة التي اجتباها الله تتعامل مع القرآن تعاملاً لا يجوز السكوت عليه، كان الجاهليون الأقدمون يصمون آذانهم عن سماعه و يتواصون بالشغب على مجالسه ويعلنون بتكذيب صاحبه حتى شكا صاحب الرسالة إلى ربه هذا الكنود ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ أما المسلمون المتأخرون فهم يسمعون وقد يتأوهون أو يسكتون ولكن العقول مخدرة والحواس مبعثرة ومسالك الأفراد والجماعات في واد آخر وكأنها تنادي من بعيد والأمة المنتمية إلى القرآن مجهولة مستوحشة والحضارة التي يصنعها لا تجد من يصور معالمها بإتقان ولا من يعبد طريقها بذكاء ولا من يفتح لها دكاناً صغيراً في سوق امتلأ بلافتات خداعة لسلع ما تساوي شيئاً أو مذاهب باطلة- بالتعبير الصريح أهكذا يتصرف أصحاب الحقيقة مع الحقيقة التي شرفوا بها وانتموا إليـــها) [1] إن هذا لمن البلاء المبين الذي يجعل الحليم يحار أمة لها موروث ثقافي ومدد سماوي كفيل بأن يتبوؤوا بها سدة الدنيا ومقدمة العالم يكون حالها أن تصير في عداد النائمين الغائبين وليست الأزمة أزمة منهج فالمنهج موجود والمصدر محفوظ وذلك من فضل الله على المسلمين ولكن الأزمة أزمة منهجية في التعامل والفهم والوعي والإدراك. وقد أخذ جانب الشكل اهتماماً أكثر من حجمه في فكر المسلمين وعقولهم وامتد ذلك في فراغ المضمون لقد فصلت الآية بين القراءة والفهم وأصبح المسلم يقرأ القرآن ليجد البركة وكأن تدبر ألفاظه دون حس بمعانيها ووعي لمغازيها يفيد أو

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـــ ٢٥، ٢٦.

هو المقصود..(إن القرآن الكريم يصنع النفوس ويصنع الأمم ويبني الحضارات هذه قدرته وهذه طاقته فأما أن يفتح المصباح فلا يري أحد النور لأن الأبصار مغلقة فالعيب عيب الأبصار التي أبت أن تنتفع بالنور والله تعالي يقول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام **مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**"[1] نحن ما اتبعنا رضوان الله ولا سبل السلام ولا استطعنا أن نقدم سلاما للعالم ولا استطعنا أن ننقل هدايات القرآن للقارات الخمس هناك في عصرنا خمسة مليارات من البشر محجوبة عن أضواء القرآن ولا تعرف عنه شيئاً والسبب أن المسلمين أنفسهم محجوبون عن أضواء القرآن وفاقد الشيء لا يعطيه[2].

والخلاصة أن القراءة مطلوبة وهامة والتجويد وحسن الأداء ضروري ومؤثر لكن يوضع كل ذلك في مكانه ومقامه فلا يمتد على حساب الفهم ولا نسرف في الوقوف عند الشكل على حساب المضمون حتى لا تتحول وسائل الفهم إلى موانع ومعيناته إلى صوارفه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

٤ - وضع النصوص في غير مواضعها:

ومن الأمور الصارفة للعقل عن الفهم والتدبر والتي تجعل بين العقل وفهم القرآن سدا منيعا أن توضع النصوص في غير موضعها

---

(١) المائدة: ١٦.
(٢) كيف نتعامل مع القرآن صـ ٣١.

فيستدل بها على غير قضاياها ويقدم بها لنتائج غير نتائجها إما لعلة في نفسه أو خلل في تركيبه الفكري والثقافي وعدم تهيئته بأدوات الفهم الصحيح والفكر السليم فتجده مثلاً يستخدم النصوص في غير بيئتها الطبيعية ومن أول من صنع ذلك الخوارج(حيث رفضوا مبدأ التحكيم في الخلاف بين علي ﷺ ومن معه ومعاوية ومن معه وحجتهم التي أعلنوها وتمسكوا بها قول الله تعالى: ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله** ﴾ [١] وعقب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه على حجاجهم هذا بكلمته الحكيمة البليغة التي ذهبت مثلاً في التاريخ إذ قال «كلمة حق يراد بها باطل» فالكلمة في ذاتها حق إذا لا حكم إلا لله سواء فسرنا الحكم بالحكم الكوني بمعني أنه لا يدبر هذا الكون ولا يتصرف فيه إلا الله تعالى أم فسرناه بالحكم الأمري التشريعي بمعني أن الآمر والناهي المشرع الذي له حق الطاعة المطلقة هو الله وحده ولكن هذا المعني شيء والتحكيم في المنازعات شيء آخر فهذا أمر قد شرعه الله تعالى وحكم به ودل عليه فهذا من جملة حكمه سبحانه وتعالى[٢] ونجد أمثلة متعدد لهذا الفكر المعوج الذي يأخذ نتيجة من غير مقدماتها ويقدم مقدمات لغير نتائجها كأن تسمع بعضهم يقول (إن القرآن نفسه سوى بين المرأة والرجل في الميراث في قوله تعالى ﴿ **لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ**

---

(١) يوسف: ٤٠.
(٢) المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة ط الرسالة ط أولى ١٤١٤/ ١٩٩٣ص٢٧٧و٢٧٨للدكتور يوسف القرضاوي

مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [١] وينسى أن هذا النصيب المفروض قد وضحه القرآن نفسه في السورة نفسها وقد سمي القرآن الكريم هذا الفعل وهو وضع النصوص في غير مواضعها تحريفا للكلم عن مواضعه وقعي على أهل الكتاب هذا الصنع الشنيع ووصفهم بأن الله تعالى أراد فتنتهم لسوء فعلهم وقبح صنيعهم ونستنج..... ولم يرد أن يطهر قلوبهم فقال ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [٢]

ومن سار في هذا الباب أتى بالعجائب معاني لم ينزل الله بها من سلطان يستدل بعضهم على منع تعدد الزوجات بقوله تعالى : ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ** ﴾ [٣] ويروج للسياحة العصرية بأن القرآن أثني على السائحين والسائحات كما في قوله تعالى في وصف المؤمنين الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأنهم لهم الجنة ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ**

---

(١) النساء: ٧.
(٢) المائدة: ٤١.
(٣) النساء: ١٢٩.

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [١] وقوله تعالى ﴿ عَسَى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [٢] فهل يتصور هذا الجو العاطر الطهور أن يكون المراد بالسياحة ما نشهده في عصرنا من أفواج المنحلين والمنحلات الذين تقذف بهم الطائرات من الجو والبواخر من البحر باحثين أو باحثات عن المتعة واللذة أينما وجدت»[٣]

٥- أن يكون همه آخر السورة..

وهذا مانع من موانع الفهم وعقبة من عقبات الوصول إلى المعني المقصود لأنه يكون أكبر شغله ومبلغ وأعظم أمله أن يختم أو يصل إلى آخر السورة وقد ورد عن النبي ﷺ «أن الغاية من العبادة عامة الوصول إلى معناها لا الوقوف عند شكلها فليس للمرء من صلاته إلا ما عقل منها " ورب صائم ليس من صيامه إلا الجوع والعطش ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب»[٤].
وقد قال تعالى في بيان القراءة النافعة ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [٥] وأمر رسوله ﷺ بالتمهل والتحسين والإجادة في إقامة الحروف والحدود فقال ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

(١) التوبة: ١١٢.
(٢) التحريم: ٥.
(٣) المرجعية العليا في الإسلام للكتاب والسنة صـ٢٨٤.
(٤) سنن ابن ماجة ١/٥٩٦ برقم ١٥٧١ وقال صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه
(٥) الإسراء: ١٠٦.

تَرْتِيلاً ﴾ [١] والذي يوقع بعض القارئين في هذا المانع أن يأخذوا جانباً من جوانب الآيات والأحاديث التي تدل على فضل القراءة دون أن يقرنوها بأخواتها مما يدل على فضل الفهم وأن يكون لهذه القراءة ثمرة من الإدراك والوعي، أو قد يكون ذلك من تلبيس إبليس فقد ذكر ابن الجوزي (أنه قد لبس على قوم بكثرة التلاوة فهم يهذون هذاً من غير ترتيل ولا تثبت وهذه حالة ليست محمودة وقد روي جماعة من السلف أنهم كانوا يقرأون القرآن في كل يوم أو في كل ركعة وهذا يكون نادراً منهم ومن داوم عليه فإنه وإن كان جائزاً إلا أن الترتيل والتثبت أحب إلى العلماء وقد قال الرسول ﷺ: لا يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث) [٢] وليس أدل على ذلك من سيرة السلف الصالح وموقفهم مع القرآن الكريم من ترديد آيات يمرون بها لا يجاوزونها حتى يصلوا بها إلى معاني تشبع نفوسهم وتروي غلتهم ورأس الصالحين رسول الله ﷺ يقف ليلة كاملة يردد قوله تعالى ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [٣] «وقد قام تميم الداري ليلة بهذه الآية ﴿ **أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ** ﴾ [٤] وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية ﴿ **وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا**

---

(١) المزمل: ٤.
(٢) انظر تلبيس إبليس صـــ ١٣٨.
(٣) والحديث أخرجه ابن ماجة بسند صحيح والآية ١١٨ من المائدة
(٤) الجاثية: ٢١.

الْمُجْرِمُونَ ﴾ [١] وقال بعضهم إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر وكان بعضهم يقول آية لا أتفهما ولا يكون قلبي فيها... وحكى عن أبي مسلم الداراني أنه قال: إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها وعن بعض السلف أنه يبقى في سورة ستة أشهور يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها وقال بعض العارفين لي فيكل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولي ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد وذلك بحسب درجاته وتعيشه) [٢] أما أن تكون القراءة مطلباً في ذاتها وغاية في نفساه فلا فعظم الأمر ليس على ترداد الحروف وهذ القرآن هذا الشعر وإنما ما وقر في القلب وقارنه العمل من هنا كان حال السلف الصالح كما رأينا فعمر ﷺ يحفظ البقرة في سنوات وقد ذكر أبو عبد الرحمن حبيب بن عبد الله السلمي كان الذين يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان يقول كنا نتعلم عشر آيات لا نجاوزها حتى نعلمها ونعمل بها فتعملنا العلم والعمل معاً ومن هنا أثرت التلاوة في سلوكهم فتغيرت معارفهم واستضاءت سريرتهم وصح علمهم وعملهم في الحياة وهذه غاية القرآن الكريم.

٦- مرض القلب أو عدم خضوعه

من أكثر صوارف عن فهم القرآن الكريم والوصول إلى معانيه أن يكون القلب وهو محل العقل والفهم والتدبر والوعي

(١) يس: ٥٩.
(٢) إحياء علوم الدين ج١ صـ ٣٩٥، ٣٩٦.

غائباً أو مريضاً لأنه المزرعة التي ينمو فيها الفهم والبوتقة التي يكتمل بها العلم وقد وصفه الرسول ﷺ بأن صلاح البدن بصلاحه وفساده بفساده فقال في الحديث الصحيح (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي إلا وهي القلب) [١] وقد صور القرآن الكريم حال قوم سماعيين للوحي معايشين للنبوة لكنهم غائبون القلب بقول ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ** ﴾ [٢] وقد تعهد تعالي بصرف أصحاب أمراض القلب عن فهم آياته وتدبر كلماته فقال ﴿ **سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [٣]

وصرف الله تعالى لهؤلاء المتكبرين عن فهم آيات القرآن الكريم وتدبر عطاءاته ليس ظلماً لهؤلاء بل هم البادون للبعد عن هدايات الله تعالي وقد وصفهم الله تعالي بأنهم إن رأوا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً إن رأوا سبيل الغي اتخذوه سبيلاً وبأنهم كذبوا

---

(١) صحيح البخاري من حديث النعمان بن بشير باب من استبرأ لعرضه ودينه ٢٨/١ومسلم باب أخذ الحلال وترك الحرام ٣ /١٢١٩..
(٢) محمد: ١٦.
(٣) الأعراف: ١٤٦، ١٤٧.

بآيات الله وكانوا عنها غافلين وأن ذلك ليس إلا جزاء لهم عما كانوا يعملون وكذلك كل الآيات التي تناولت هذه الأوصاف مثل الختم والطبع والأ كنة ونحو ذلك تدلك أنهم هم البادؤن للإعراض عن

هدايات السماء وعطاءات القرآن الكريم وقد ذكر الإمام الزركشي رحمه الله في برهانه أن القلب المريض لا يصل إلى فهم مراد الله تعالى من كلامه فقال «واعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معاني الوحي ولا يظهر له أسراره وفي قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا أو هو مصر على ذنب أو غير متحقق بالإيمان أو ضعيف التحقق أو يعتمد على مفسر ليس عنده علم أو راجع إلى معقوله وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكثر من بعض) [١] فالبدعة عندما يسر بها القلب عياذاً بالله تصد القلب عن الفهم فيكون حائلاً بينه وبين الإدراك والمعايشة بل قد يؤدي إلى غير المراد لأن ميزانه غير منضبط وقياسه غير سليم وقد حدد النبي ﷺ وصفاً لهذا القلب المعوج الذي تنكت فيه النكت السوداء فتحول بينه وبين معرفة المعروف وإنكار المنكر فيقول ﷺ «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً فأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء وأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء حتى تصير القلوب على قلبين أبيض كأنما فيه سراج يزهر وكالكوز مجخيا لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً»[٢] ولذلك حرص علماؤنا على بيان

(١) البرهان/ ١٩٧

(٢) صحيح مسلم ج١ صـــ١٢٩ ط دار إحياء التراث العربي بيروت ت محمد فؤاد عبد الباقي .

خطر مرض القلب في الفهم والإدراك فقال ابن قدامة وهو يعرض لهذا الأمر الجلل «وليتخل عن موانع الفهم ومن ذلك أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى بهوي مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه فالقلب مثل المرآة والشهوات مثل الصدأ أو معاني القرآن مثل الصورة التي تتراءي في المرآة والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل جلاء المرآة[١]، وقد يكون القلب سليماً لكنه غائب عندما يقرأ لاه عما يتلو فلا ينتفع بتلاوة ولا يفيد من قراءة ويستوي في ذلك مع مريض القلب في هذه الصفة وقد قسم ابن قيم رحمه الله تعالى القلوب وذكر أن غياب القلب عما يعاين صارف من صوارف الفهم فقال: (الناس ثلاثة رجل قلبه ميت، ورجل له قلب حي لكنه مشغول ليس بحاضر فهذا له الذكري والثالث رجل حي القلب مستعد تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقي السمع وأحضر القلب ولم يشغله بغير فهم ما يسمع فهو شاهد القلب فهذا هو الذي ينتفع بالآيات وقد صوره رحمه الله بالبصر الطامح يبصره إلى غير المطلوب[٢] وقد عد ﷺ اشتغال القلب من موانع الفهم فيحدث أيضاً عن المؤثر والمانع والشرط في الفهم بقوله (فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ٦٧- ٦٨.
(٢) انظر مدارج السالكين ١/ ٤٤٢ بتصرف يسير وانظر تدبر القرآن صـ ٥٠.

الأثر وهو الانتفاع والتذكر»[١] ومن هنا علينا أن نجزم بأن مرض القلب أو غيابه مانع من موانع الفهم وصارف من صوارف إدراك المراد من كلام الله تعالى لأن القلب هو محل الانتفاع وقد نسب الله تعالي إليه الإدراك في آيات كثيرة من القرآن الكريم فقال تعالي: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢] وقال تعالي : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [٣] وقال تعالي ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٤] ولكون القلب هو محل الانتفاع أو الإعراض عن هذا الانتفاع نسب الله تعالي في القرآن الكريم أفعالاً متعددة مثل الاطمئنان والإصغاء والطمأنينة والطهر والوجل والخشوع كما نسب إليها القسوة والكسب والمرض والختم والصرف والانتفاع واللهو والزيغ إلى غير هذه الأوصاف التي تحتاج إلى دراسة مفردة [٥]

٧ - التورع الواهم

بعض الناس لديهم فهم مغلوط أو تدين مغشوش بتعبير أحد العلماء يضع الأمور في غير مواضعها ويزن الأشياء بغير موازينها ومن ذلك بعدهم عن التدبر القرآني ظناً منهم أنهم ليسوا أهل للتدبر ولا كفؤا للتفكر ويكتفون من ذلك بالقراءة المجردة

(١) الفوائد صـ١.
(٢) محمد: ٢٤.
(٣) الحج من الاية٤٦
(٤) البقرة: ٧.
(٥) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ط دار الحديث مادة قلب.

والوقوف عند تحصيل أجر الأداء ناسين أو جاهلين أن دور القرآن الكريم في الحياة ليس تحصيل الثواب للآخرة فحسب بل أيضاً لإعمار الكون وإحياء الحياة على اسم الله تعالي وعلى ضوء من منهاجه وتشريعه وهذا الفهم المغلوط أو النظر القاصر باب من أبواب تلبيس الشيطان على الإنسان حتى قال ابن هبيرة رحمه الله ومن مكايد الشيطان تنفيره عباد الله من تدبر القرآن لعلمه أن الهدى واقع عند التدبر فيقول: هذه مخاطرة حتى يقول الإنسان أنا لا أتكلم في القرآن تورعاً»[1]

وقد عد ابن القيم هذا التلبيس لوناً من ألوان الحرج يخشى منه فقال في كتابه التبيان (ومن قال إنه أي القرآن تأولاً لا نفهمه ولا نعلمه وإنما نتلوه متعبدين بألفاظ ففي قلبه منه حرج»[2] ذلك لأن الهدف الأسمى من القرآن الكريم ليس فقط مجرد النظر في حروفه وصفاته بل إقامة حدوده وتصوراته حتى يعمر الإنسان الأرض على منهاج هذا الكتاب الكريم الذي هو وسيلة الأحياء في الحياة وليس فقط ذخر الأصوات بعد الحياة ومن أروع ما يذكر في ذلك كلام فقيه المقاصد الإمام الشاطبي رحمه الله عندما يوازن بين كونه معجزا وكونه مفهوماً معلوماً إذ يقول رحمه الله (فمن حيث كان القرآن معجزا أفحم الفصحاء وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله فذلك لا يخرجه عن كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب ميسراً للفهم فيه عن الله مما أمر به ونهي لكن بشرط الدربة في اللسان

(١) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٣/ ٢٧٣ وانظر تدبر القرآن صـ ٥٢.
(٢) التبيان في أقسام القرآن صـ ١٤٤

العربي إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول لمعانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق وذلك مرفوع عن الأمة وهذا من جملة الوجوه الإعجازيه إذ من العجب إيراد كلام من جنس كلام البشر في اللسان والمعاني والأساليب مفهوم معقول ثم لا يقدر البشر على الإتيان بسورة مثله وقد قال تعالى ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (١) وعلى أي وجه فرض إعجازه فذلك غير مانع من الوصول إلى فهمه ومعقل معانيه ﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (٢) فهذا يستلزم إمكان الوصول إلى التدبر والتفهم(٣) مكون القرآن معجزاً للفصحاء ومسكتاً للبلغاء لا يعني ذلك أن يكون عسير الفهم أو بعيد المثال وإن كان للناس في فهمه وتدبره درجات وقد يتيح الله تعالي لإنسان من المعاني ما لا يجده في كتاب ولا يحصله عند غيره من أهل التخصص والاستذكار وكم رأينا في حياتنا المعيشة أفراداً لا يربطهم بالقرآن، إلا إمعان النظر وجودة التفكير وحسن المطالبة يأتون بمعاني لم يقف عليها علماء أفذاذ ورواد مميزون ولعل ذلك وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم.وقد فند الشيخ الشنقيطي رحمه الله صاحب أضواء البيان شبهة أن تدبر القرآن لا يكون إلا لمجتهد خاص فذكر عند تعرضه لقوله تعالي ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا** ﴾ (٤) الآيات المماثلة لذلك في الدعوة إلى التدبر

(١) القمر: ١٧.
(٢) ص: ٢٩.
(٣) الموافقات ٣/ ١٨٥
(٤) محمد: ٢٤.

والتفكر وذم من أعرض عن التدبر والتفهم لآيات القرآن الكريم وأكد على أن كل من لم يشتغل بتدبر هذا القرآن العظيم في آيات أي تصفحها وتفهمها وإدراك معانيها والعمل بها فإنه يعرض عنها غير متدبر لها فيستحق الإنكار والتوبيخ المذكور في الآيات إن كان ممن أعطاه الله فهماً يقدر به على التدبر وقد شكا النبي ﷺ إلى ربه من هجر قومه هذا القرآن كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ﴾ [١] وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به أمر لابد منه للمسلمين وقد بين النبي ﷺ أن المشتغلين بذلك هم خير الناس كما ثبت عنه ﷺ في الصحيح من حديث عثمان بن عفان ﷺ أنه قال (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) وقال تعالى "**وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ**"[٢] فإعراض ﷺ كثير من الأقطار عن النظر في كتاب الله وتفهمه والعمل به وبالسنة الثانية من أعظم المناكر وأشنعها وإن ظن فاعلوه أنهم على هدى) [٣] وذكر رحمه الله أن كلام بعض الأصوليين بأن تدبر القرآن وتفهمه والعمل به لا يجوز إلا لمجتهدين خاصة.. قول لا سند له من دليل شرعي أصلاً بل الحق الذي لا شك فيه أن كل من له القدرة من المسلمين على التعلم والتفهم وإدراك معاني الكتاب والسنة يجب عليه تعلمها والعمل بها أما العمل بهما مع الجهل بما

---

(١) الفرقان: ٣٠.
(٢) آل عمران: ٧٩.
(٣) أضواء البيان جـ٧ صـ ٢٥٧، ٢٥٨ ط دار الحديث القاهرة ط ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٠م.

يعمل به فهوً فممنوع شرعاً وإما ما علمه منهما علماً صحيحاً ناشئاً عن تعلم صحيح فله أن يعمل به ولو آية واحدة أو حديثاً واحداً ومعلوم أن هذا الذم والإنكار على من لا يتدبر كتاب الله عام لجميع الناس وبما يوضح ذلك أن المخاطبين الأولين الذين نزل فيهم هم المنافقون والكفار وليس أحد منهم مستكملاً لشروط الاجتهاد المقررة عند أهل الأصول بل ليس عندهم شيء منها أصلاً فلو كان القرآن لا يجوز أن ينتفع بالعمل به والاهتداء بهد يه إلا المجتهدون بالاصطلاح الأصولي لما وبخ الله الكفار وأنكر عليهم عدم الاهتداء بهداه ولما أقام عليهم الحجة به حتى يحصلوا شروط الاجتهاد المقررة عند متأخري الأصوليين.....[1] وفي ذلك بيان أي بيان عن أن التفهم والتدبر لا يقف عند حد العلماء والمجتهدين إلا ما كانت توجيهات القرآن وحكاياته عامة موجهة إلى عموم الناس وإلا لما كانت توجيهات القرآن إلا لفئة مخصوصة من البشر

٨- الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة

من صوارف الفهم عن المعني المراد في القرآن الكريم أن يعتقد الإنسان أن القوالب الفكرية السابقة هي نهاية المطاف وليس في الإمكان أبدع مما كان وهذا الفهم يقف بالقرآن الكريم عند عصر معين وزمان محدود والواقع أن عطاء القرآن الكريم لا يقف عند حد ولا ينقطع عند سد بل يمضي مضي الزمان والمكان ويبقى ما بقى الليل والنهار.

---

(١) السابق ٧/ ٢٥٨.

إن من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال ووضع الأغلال والآصار والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة والاغتراف منها لعلاج الحاضر والامتداد صوب المستقبل واعتماده مصدراً للمعرفة والبعث الحضاري التوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي اتخذت من القرآن في العصور الأولى هي نهاية المطاف وأن إدراك أبعاد النص مرتهن بها في كل زمان ومكان وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي وجعل الرأي دائماً قرين الهوى وسوء النية وفساد القصد وفي هذا ما فيه من محاصرة للنص القرآني وقصر فهمه على عصر معين وعقل محكوم برؤية ذلك العصر وحجر على العقل وتخويف من التفكير الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن[1] ، ولا يشك إنسان بأن خير الفهوم فهوم الجيل الذي شهد له النبي ﷺ بالخيرية إلا أن هذا ليس هو نهاية الشوط بل القرآن ومعانيه يتجدد ولا يتبدد لا يغيض ماؤه ولا يكدر رواؤه وصفاؤه ولكن يحتاج إلى من يحمل أدوات الفهم السليم حتى يوظفه في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان.

وهذ الصارف من صوارف الفهم له بما قبله وجهد ونسب فإذا كان السابق يحول دون ارتفاق معاني القرآن الكريم وسبر أغواره والعيش في ظلاله فإن هذا الصارف يجعل الناظر في القرآن الكريم يقف عند فهوم السابقين دون محاولة تجديد هذه الفهوم بما جد من

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـ ١٧، ١٨، من مقدمة الأستاذ محمد عبيد حسنة.

معطيات العصر وتطور الزمان وهؤلاء الأعلام السابقون والأئمة الراسخون قالوا أهم ما في زمانهم وأبرز ما أعطاه لهم وقتهم ولو كانوا في زماننا ووقتنا لكان لهم مع هذا الكلام رأي آخر يتناسب مع زماننا ووقتنا ولا يعني ذلك القفز كما يقولون على هذا التراث الضخم الذي هو وسيلة من وسائل الفهم وإنما معناه هضم هذا الزخم العلمي والتراثي الزاخر حتى نفيد من سناه ونستضئ بضياه ونمضي على درجه وطريقه وقد كان الأستاذ أمين الخولي - رحمه الله- يقول: (أول التجديد قتل القديم بحثاً وفهماً) وهي حكمة عا قلة رائدة، ذلك أن الفهم الحقيقي لا يمكنه أن يتجاوز الفهوم السابقة بل ينطلق منها ويبني عليها، أما إنكارها والتبرؤ منها فهو قطع للجذور وسد للمنابع ورفض للأصول وكما أن ذلك خطأ وخطيئة فإن الوقوف عند هذه الأصول وحدها دون الإفادة منها قد يكون عائقاً من عوائق الفهم والفكر والتطبيق والعلم (فإن من أخطر الإصابات التي لحقت بالعقل المسلم فحالت بينه وبين التدبر وكسر الأقفال ووضع الأغلال والآصار والتحقق بالفكر القرآني والرؤية القرآنية الشاملة والاغتراف منها لعلاج الحاضر والامتداد صوب المستقبل واعتماده مصدراً للمعرفة والبحث الحضاري والتوهم بأن الأبنية الفكرية السابقة التي استمدت من القرآن في العصور الأولى هو نهاية المطاف وأن إدراك أبعاد النص مرتين بها في كل زمان ومكان وما رافق ذلك من النهي عن القول في القرآن بالرأي وجعل الرأي دائماً قرين الهوى وسوء النية وفساد القصد وفي هذا ما فيه محاصرة للنص القرآني وقصر فهمه على عصر معين وعقل

محكوم برؤية ذلك العصر وحجر على العقل وتخويف من التفكر الأمر الذي يحول بين الإنسان والتدبر المطلوب إليه نص القرآن.. والاقتصار على هذا المنهج في النقل والتلقي يحاصر الخطاب القرآني نفسه ويقضي على امتداده وقدرته على العطاء المتجدد للزمن وإلغاء لبعده المكاني ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾[١] ولبعده الزماني ﴿ **وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ** ﴾[٢] وإلغاء التكليف القرآني من السير في الأرض والنظر في البواعث والعواقب باستمرار النظر في الأنفس والآفاق والاكتشاف الحسن للسنن والقوانين والتعامل معها في ضوء العطاء العلمي[٣] وقد يكون سبب ترسخ هذه القناعة الفكرية في عقول المسلمين ما مروا به في عصور الانحلال والاضمحلال الذي شمل أبواب الفقه والفكر في عصور الضعف والهزيمة النفسية حتى ينقل الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان عن أحد المفسرين قوله (ولا يجوز تقليد ما عدا المذاهب الأربعة ولو وافق قول الصحابة والحديث الصحيح والآية فالخارج عن المذاهب الأربعة ضال مضل وربما أداه ذلك إلى الكفر لأن الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر) [٤] فانظر رعاك الله كيف وصل الأمر بجيل من

---

(١) سبأ: ٢٨.
(٢) الأحزاب: ٤٠.
(٣) كيف نتعامل مع القرآن صـ ١٧، ١٨، من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، بتصرف يسير.
(٤) أضواء البيان جـ٧ صـ ٢٦٢. نقلا عن الصاوي في الحاشية على الجلالين

الناس أن يحصر الفهم القرآني في فترة محددة وفهم محدد مع أننا ما أمرنا بقصر فهم القرآن على جيل دون جيل أو زمن دون زمن بل طولبنا بأن نوظف الفهم السابق الذي عاشه السلف الصالح والأئمة السابقون بما ينفع ما نعيشه في حياتنا المعاصرة (إن الدعوة إلى محاصرة العقل والحجر عليه وقصر الفهم والإدراك والتدبر على فهوم السابقين هو الذي ساهم بقدر كبير في الانصراف عن تدبر القرآن وأقام الحواجز النفسية المخيفة التي حالت دون النظر وأبقى الأقفال على القلوب وصار القرآن تناغيم وتراتيل وبدل أن يكون الميراث الثقافي وسيلة تسهل الفهم وتغني الرؤية وتعين على التدبر أصبح من بعض الوجوه عائقاً يحول دون هذا كله وشيئاً فشيئاً تتحول القدسية من القرآن إلى السنة فنجعل السنة حاكمة على القرآن ومن ثم انتقلت القدسية لفهوم البشر وبقي الكتاب والسنة للتبرك[1] ، ولا يعني هذا أننا نريد أن نتجاوز هذا التراث الضخم من الفهم الراسخ والإدراك الراسي العميق الذي توفر له من شواهد النزول وصحيح المنقول ما جعله خير الفهوم كما يقول شيخ الإسلام في مقدمة أصول التفسير إنما نريد أن نفيد منه ونستضئ به حتى نعبر إلى إعمار الأرض وإصلاح الدنيا بالدين حتى يهتف العالم من جديد ها قد عاد المسلمون).

٩ - الاشتغال بالمبهمات

للقرآن الكريم منهج رائد في عرض قضاياه وتصوير مراده

(١) كيف نتعامل مع القرآن صـ ١٩.

من إبراز ما يحتاج إلى ظهور وإغفال ما يترتب على تركه ضرر ولو اتبعت هذا المنهج القرآني الذي سار عليه في عرض القصة مثلاً سنجد أنه لا يذكر المكان ولا الزمان ولا الملامح الشخصية كاملة إلا إذا ترتب على ذلك فائدة كما أنه لا يقف عند الأسماء والأعداد وفي ذلك ما فيه من فوائد كإثارة الذهن ويقظته وعدم تقديم الكم المعرفي كاملاً لينشط إلى تتبعه واحترام هذا العقل البشري فلا يذكر له إلا ما يعنيه ويفيده ويجعله عقلاً يحلل ويعلل ويستنبط ويكون لديه تلك المهارة والقدرة على الاستنتاج والفهم وفي ذلك دعوة عملية للعقل المسلم أن يكون في تفكيره وعلمه على نفس هذا المنهاج القرآني العزيز من هنا ضرب القرآن الكريم الذكر صفحاً عن أشياء لا تفيد العقل المسلم فإذا أغرق العقل نفسه في هذا المبهمات وتنكب المنهاج القرآني في التعامل مع القرآن نفسه وضع بذلك أمام نفسه صارفاً من صوارف فهم القرآن وهو الاشتغال بالمبهمات والجري وراء معرفتها وفي ذلك ما فيه من صرف همة العبد عن الأهم إلى غير المهم ومن المراد إلى غير المراد.

١٠- عدم استصحاب قواعد التفسير

لاشك أن علم قواعد التفسير والعلم بمفردات علوم القرآن باب عظيم النفع في معرفته مراد الله تعالي من كلامه قدر الطاقة البشرية وكل باب من هذه الأبواب له ظلال خاصة وإضافة مفيدة في فهم القرآن فكيف يصل إلى الفهم مثلاً من لم يعرف الفرق بين

المكي والمدني والناسخ والمنسوخ أو أسباب النزول أو معهود العرب في خطابهم وثقافتهم الفكرية والاجتماعية ومفردات حياتهم وقد مر بنا شيء من هذه المفردات عرفنا أهميتها وفائدتها في إيضاح المعنى وبيان المراد، ولا يقل أهمية عن ذلك إدراك قواعد التفسير تلك التي تعتبر خلا صات قدمها رواد هذا العلم من خلال استقرائهم لآيات القرآن الكريم وخرجوا بها ليفيد بها المشتغلون بهذا العلم خاصة والقارئون والسامعون لهذا الدستور بصفة عامة.

وترك هذه القواعد وتطبيقها أو الجهل بها وشيء من مفردات علوم القرآن يجعل فهم الإنسان للنص القرآني فهماً قاصراً وإدراكه له إدراكاً باهتاً.

المحور الرابع

معينات الفهم

أما معينات الفهم والوصول إلى معرفة معاني القرآن الكريم بقدر الطاقة البشرية فهي متعددة منها ما يلي:

(١) المعايشة:

ومن ذاق عرف ومن عرف اغترف ومن حرام انحرف

لا يدرك الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

إن استصحاب القرآن الكريم في القلب والعقل والتحاكم إليه في صغير الأمر وكبيره باب عظيم النفع من أبواب الإفادة من معاني القرآن الكريم- وهو علامة على حياة القلب ويقظته واستعداده للنفع كالأرض الطيبة التي يأتيها رزقها رغداً من كل مكان أو كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل، يقول ابن القيم رحمه الله (من الناس من يكون حي القلب واعيه تام الفطرة فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه وعقله على صحة القرآن وأنه حق وشهد قلبه بما أمر به القرآن فكان ورود القرآن على قلبه نوراً على نور الفطرة وهذا وصف الذين ﴿ل لهم ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [1] وقوله

(١) سبأ: ٦.

﴿ نُورٌ عَلَى نُورٍ ﴾ [١] فهذا نور الفطرة على نور الوحي وهذا صاحب القلب الحي الواعي يجمع بين قلبه الواعي وبين معاني القرآن فيجدها كأنها قد كتبت فيه فهو يقرؤها عن ظهر قلب ومن الناس من يكون تام الاستعداد واعي القلب كامل الحياة فيحتاج إلى شاهد يميز بين الحق والباطل ولم تبلغ حياة قلبه ونوره وزكا ء فطرته مبلغ صاحب القلب الحي الواعي فطريق وصول هدا يته أن يفرغ سمعه للكلام وقلبه للتأمل والتفكر فيه وتعقل معانيه فيتعلم حينئذ أنه الحق[٢] إن معايشة الإنسان للقرآن الكريم تفتح له مغاليق الفهم وتيسر له سبل الوصول إلى مراد الله تعالي وكم من فقهاء ومفسرين عاشوا في ظلال القرآن الكريم في أتون المحن فأثمرت تلك المعايشة والمخالطة مالا يتيسر لغيرهم في بحبوحة الحياة وذلك ما كان يتردد على لسان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما يصنع أعدائي بي إن حبسوني فحبسي خلوة وإن نفوني فنفي سياحة وإن قتلوني فقتلي شهادة في سبيل الله أنا في صدري كتاب الله وسنة نبيه) وكم من علماء عاشوا محاور القرآن الكريم وهم في محنة من المحن فكانت فيو ضات وعطاءات دونها عطاء الكتاب وا لقرطاس من هنا تعين على المسلم أن يعايش القرآن الكريم معايشة تبرز له معانيه ويختلط بروحه وعقله وفهمه ووعيه حتى يصل من الخير إلى ما يريد إن المعايشة تعين على استحضار الصورة التي يتناولها

---

(١) النور من الآية ٣٥

(٢) انظر الفوائد ط مكتبة نذار مصطفي الباز ط الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤ م. وتدبر القرآن ط المنتدي مجلة البيان ط الثانية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. د سليمان السنيد ي.

القرآن الكريم فيرى أهل الجنان منعمين وأهل النار معذبين موقوفين لذلك كان أصحاب النبي ﷺ أعظم الناس حظاً في فهم القرآن الكريم والانتفاع وذلك كما يقول شيخ الإسلام في مقدمته (لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها فحصل لهم الفهم التام والعلم الصحيح) [1] إن الذي يعايش القرآن الكريم في حله وتر حاله ويطوي معه الزمن فيسير في عمق الزمان مضياً واستقبالاً ستفتح له كنوز من المعرفة لا يدركها إلا من ذاقها وخبرها وعندئذ ستتحول حياته إلى حركة وعمل وعطاء وبذل لأنها ستضاء بمفاهيم القرآن التي تشبعت بها وتزن بموازين القرآن فلا تقدم إلا ما قدم الله في كتابه ولا تؤخر إلا ما أخره الله في كتابه ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلامن أراد العيش الحقيقي مع القرآن الكريم فليترك نفسه تسبح مع المسبحين وتستغفر مع المستغفرين وتذكر مع الذاكرين وليطلق لها عنان الرؤية حتى تعايش أصحاب النعيم في تفهم وترى مصارع الغابرين في مهلكهم وترى إنجاء الله تعالى لأصحاب الداعوت والرسالات على تطاول الأعصار والأمصار وكم كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يحيون هذه الحياة القرآنية وكم مر بنا من موقف لهم يقفا لواحد منهم ليلة كاملة مع آية يعايشها ويحققها في نفسه يقول الإمام النووي – رحمه الله- (ويستحب له إذا مر بآية رحمة يسأل الله تعالي من فضله وإذا مر بآية عذاب أن يستعيذ بالله من الشر ومن

(١) مقدمة في أصول التفسير صـ ١٤٠ ط دار المؤيد ط أولي ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

العذاب ويقول اللهم إني أسألك العافية أو أسألك المعافاة من كل مكروه ونحو ذلك وإذا مر بآية تنزيه لله تعالي نزه فقال سبحانه وتعالى أو تبارك وتعالى أو جلت عظمة ربنا فقد صح عن حذيفة ﷺ قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة فمضى فقلت يركع بها ثم افتتح النساء فقرأها ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ ترسلاً إذا مر بآية فيها تسبيح سبح وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ) [رواه مسلم في صحيحه] وكانت سورة النساء في ذلك الوقت مقدمة على آل عمران[١] ومن صور المعايشة والتجاوب في آيات الله تعالي التي يقرؤها ويتجاوب معها أنه إذا مر بآية فيها صلاة على النبي ﷺ **صلى وسلم عليه** وإذا مر بآية فيها سؤال يعلمه أجاب كقوله تعالي ﴿ **أليس ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى** ﴾ [٢] قال بلى قادر وقد روي عن ابن عباس وابن الزبير وأبي موسى الأشعري رضي الله عن الجميع- أنهم إذا قرأ أحدهم ﴿ **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** ﴾[٣] قال سبحان ربي الأعلى وعن عمر ﷺ كان يقول فيها سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات[٤] ولا يصل الإنسان إلى هذه الصورة إلا بمعاينة ما يقرأ ومعايشة ما يتلو حتى يصير ما يقرؤه حياً أمامه سواء كان ذلك في عالم الغيب أم في عالم الشهادة وهذا ما عبر عنه حجة الإسلام الإمام الغزالي بمنزلة

---

(١) التبيان في آداب حملة القرآن صـ والحديث روام مسلم ج١ صـ٥٣٦ برقم ٧٧٢ باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ٥٨.
(٢) القيامة: ٤٠.
(٣) الأعلى: ١.
(٤) التبيان صـ ٧٩.

التأثر ووصفه بقوله (وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره... فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل. كذكرهم لله عز وجل ولداً وصاحبة يخفض صوته ويكسر في باطنه حياء لقبح مقالتهم وعند وصف الجنة- ينبعث بباطنه شوقاً إليها وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود ﷺ اقرأ على[1] قال فافتتحت سورة النساء فلما بلغت ﴿ **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** ﴾ [2] رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي حسبك الآن وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه بالكلية ولقد كان في الخائفين من خر مغشياً عليه عند آيات الوعيد وفيهم من مات في سماع الآيات فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه فإذا قال ﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [3] ولم يكن خائفاً كان حاكياً وإذا قال

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ج٤ صـ١٩٢ في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود ط دار ابن كثير بيروت لبنان ط الثانية ت مصطفى الغا.

(٢) النساء: ٤١.

(٣) يونس: ١٥.

"عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [١] ولم يكن حال التوكل والإنابة كان حاكيا وإذا قال ﴿ وَ لَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ﴾ [٢] فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة فإن لم يكن لهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان[٣] وضرب الإمام مثلاً لمن يقرأ القرآن ولا يعايشه بقلبه ولا يحياه بحسه وروحه كالذي يقرأ كتاب مليكه الذي يأمره بإعمار مملكته وهو ممعن في تخريبها ومدمن لقراءة الكتاب وكان الإمام بذلك يعاين أحوال عموم المسلمين إلا من رحمه الله. فيقول (ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في إعمار مملكته وهو مشغول في تخريبها ومقتصر على دراسة كتابه فلعله لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستهزاء واستحقاق المقت وصور معايشة الجيل الأول وعنايتهم بهذه المخالطة بينهم وبين القرآن الكريم بقوله (لقد كان شغل الصحابة ﷺ في الأحوال والأعمال فمات رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فانتهى إلى قوله ﷺ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [٤]

---

(١) الممتحنة: ٤.
(٢) إبراهيم: ١٢.
(٣) الإحياء ١/ ٤٠٠، ٤٠١.
(٤) الزلزلة: ٧، ٨.

قال يكفي هذا وانصرف فقال ﷺ «انصرف الرجل وهو فقيه»[١] إنما العزيز مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية فأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى[٢]

إن المراد من المعايشة أن يصل القارئ والسامع إلى درجة التواصل الحقيقي مع القرآن الكريم فيحس بإحساسه ويشعر بشعوره وينظر إلى مقاصده وغاياته ويدنوا إلى أهدافه ومتطلباته ساعتها تكون رسالة القرآن في الحياة قد وصلت إلى الأحياء ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

إن من يعايش القرآن هذه المعايشة ويقبل عليه هذا الإقبال تنفتح النصوص عن رصيدها المذخور وتنفتح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة وهنا تتحول تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها تنتفض خلائق حية موحية دافعة تعمل في واقع الحياة وتدفع بها إلى حركة حقيقية في عالم الواقع وفي عالم الضمير وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ثم يقف الموقف أو يواجه الحادث فإذا النص القرآني جديد يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ويجيب على السؤال الحائر ويفتي في المشكلة المعقدة ويكشف الطريق الخفي ويرسم الاتجاه القاصد ويضئ بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه وإلى الاطمئنان العميق وليس ذلك لغير القرآن في

---

(١) الحديث ذكره ابن حبان في صحيحه ج٣ صـ٥٠ بلفظ مقارب .
(٢) انظر الأحياء ١/ ٤٠٢ بتصرف واختبار.

قديم ولا حديث[١]

(٢) حضور القلب:

فكيف يفتح القرآن كنوزه لقلب غافل غير يقظان أولاه مشغول عن عطاءه وفيضه، إن القلب إذا حضر عند سماع القرآن أو تلاوته وقراءته فتحت أمامه مغاليق الفهم وتبدد لديه كسف الظلام فإذا بنور القرآن يسرى في عقله وقلبه وروحه ودمه فيجعله إنساناً آخر إنسانا قرآنيا يتحرك بالقرآن محياه وشغله ومصحبه وممساه تتماسك أمامه القيم ولا تنفلت بين يديه المعايير وقد كان حال السلف الصالح مع القرآن حالاً يحتاج منا إلى وقفة فقد كانوا وقافين كلام الله حضور قلب ويقظة فؤاد وقد ذكر في قوله تعالي ﴿ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ [٢] أن المراد بجد واجتهاد وأن أخذه بالجد أن يكون مجرداً له عند قراءته منصرف الهمة إليه عن غيره وقد قيل لبعض إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء فقال أو شئ أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسي وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عن صفة التعظيم لكلام الله تعالي فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلاً له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره وهو في متنزه عنه والذي يتفرج في المتنزهات لا يفكر في غيرها فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات فإذا

(١) في ظلال القرآن جـ٥ صـ ٢٨٨٦
(٢) مريم من الآية ١٢.

دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتنزه في الرياض وسكن غرق الخانات استغرقه ذلك وشغل عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره[١]. وهو توصيف راق من حجة الإسلام لحضور القلب ويقظته وعدم مبالاته بما سوى القرآن **أو الاعتناء بما عداه**

(٣) المدارسة:

وهي صورة من صور الرغبة في تفهم القرآن الكريم والوقوف على حروفه وحدوده واستنباط حكمه وأسراره وقيمه ومعانيه وهذا ما حث عليه النبي ﷺ ورغب فيه بقوله (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسون فيما بينهم إلا غشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) [٢] والمدارسة لون من ألوان اختزال الفكر واستدعاء المعاني والاجتماع على مائدة قرآنية واحدة يقطف منها أصحاب ثقافات متعددة يأخذون منها ما تطيب به نفوسهم وتصح به عقولهم وقد كان أصحاب النبي ﷺ يتدارسون القرآن ويعيشون حوله بل به وما أسئلة عمر الفاروق لأصحابه عن معنى (التخوف) ومفاد سورة النصر وغيرها منا ببعيد فهذه المدارسة تعين على توقد الذهن وحضور العقل وتكامل الفكر حتى يفيد المتدارسون للقرآن أكبر فائدة فقد قال ابن عباس (الدراسة صلاة) وقال ابن مسعود ﷺ

(١) انظر إحياء علوم الدين ط بيروت ط أولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.
(٢) جـ١ صـ ٣٩٤ لحجة الإسلام الإمام الغزالي بتصرف يسير.

تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها [١]

ونقل عن ابن القيم قوله (ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها فالمذاكرة بها لقاح العقل) [٢].

وقد كان النبي ﷺ يدارس أصحابه فهذه أمنا عائشة رضي الله عنها تدارس النبي ﷺ وتسأله فعن ابن أبي مليكة أن عائشة رضي الله عنها كانت لا تسمع شيئاً لا تفهمه إلا راجعت فيه حتى تفهمه وأن النبي ﷺ قال (من حوسب عذب) فقالت عائشة رضي الله عنها فقلت أليس يقول الله - تعالي- ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾ [٣] فقال رسول الله ﷺ «إنما ذلك العرض وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب). [٤]

يقول ابن حجر في الفتح (وفي الحديث ما كان عند عائشة من الحرص على تفهم معاني الحديث وأن النبي ﷺ لم يكن يتضجر من مراجعة العلم وفيه جواز المناظرة ومقابلة السنة بالكتاب- وقد وقع ذلك لغير عائشة.

(٤) صدق القلب

ولاشك أن صدق القلب والإخلاص والإلحاح في طلب الفهم طريق موصل إلى المراد فإنهم قالوا من أكثر من الطرق أوشك أن

---

(١) جامع البيان العلة وفضله ١/ ٢٢ وانظر تدبر القرآن صـ ١٤٤.
(٢) مفتاح دار السعادة صـ ٢١٧.
(٣) الانشقاق: ٧، ٨.
(٤) الصحيح البخاري ج١ صـ٥١ باب من سمع شيئا وراجع فيه من حديث ابن أبي مليكة

يفتح له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله (من تدبر القرآن طالباً الهدى فيه تبين له طريق الحق[١]، ولم لا والقرآن لا يرضى بأن يكون له من الناس فضل الأوقات ولا فضل العزمات وإنما يرضى بأن تعطيه كلك حتى يكشف لك عن بعض كنوزه وعطاياه ومن صدق الطلب إدامة النظر فيه والتفكر في كلماته ومراميه.

(٥) سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها

إن سلامة التلاوة طريق إلى سلامة الفهم وإتقان الأداء باب موصل إلى التدبر والتفكر والترسل في القرآن بترتيل وترتيب معين من معنيات الفهم ولأمر ما كان جبريل عليه السلام يعارض النبي ﷺ بالقرآن في كل عام مرة فلما كان العام الذي توفى فيه ﷺ عارضه بالقرآن مرتين ولذلك قال السيوطي في إتقانه (إن التحقيق يكون للرياضة والتعلم والتمرين والترتيل يكون للتدبر والتفكر والاستنباط) [٢] ولاشك أن الترسل في القراءة والتواصل بها يعين على فهم القضية المترابطة والمعني الواحد الذي لا يكتمل إلا باكتمال جزئياته وقد استحب العلماء الترتيل لأنه معين على الفهم كما ذكر حجة الإسلام في إحيائه بقوله وهو يعدد آداب القراءة فيقول (الخامس أي من آدابها الترتيل وهو مستحب في هيئة القرآن.. لأن المقصود من القراءة التفكر والترتيل معين عليه ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت

(١) العقيدة الواسطية ١٠٣ ط شرح خليل هراس وانظر في تدبر القرآن للسنيدي صـ ١١١.
(٢) الإتقان ١/ ١٠٠ ط المكتبة الثقافية بيروت لبنان بدون تاريخ

قراءة مفسرة حرفاً حرفاً وقال ابن عباس ﷺ لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله قال هما في الأجـر سواء) [١] كما أن القراءة بترتيب تعين أيضاً على الفهم والتدبر وذلك للترابط الموضوعي الذي هو لون من ألوان الإعجاز القرآني فإن كل آية مع أختها تمثل ربطاً بديعاً ورصفاً محكما يطيع جماله بتقطيعه وكل آية مع أختها لحمة واحدة تمهد السابقة للاحقة وتؤكد اللاحقة على السابقة في تناغم واتساق وكذلك ترتيب السور بعضها بعد بعض لحكمة وغاية حتى قال الإمام النووي رحمه الله (الاختيار أن يقرأ على ترتيب المصحف فيقرأ الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران ثم ما بعدها على الترتيب وسواء قرأ في الصلاة أو في غيرها.. ويستحب إذا قرأ سورة أن يقرأ بعدها التي تليها ودليل هذا ترتيب المصحف إنما جعل هذا لحكمة ينبغي أن يحافظ عليها إلا فيما ورد الشروع باستثنائه كصلاة الصبح يوم الجمعة يقرأ في الأولى سورة السجدة وفي الثانية سورة الإنسان ونحو ذلك) [٢]

هذا وقد سار أصحاب النبي ﷺ على منهاجه صلوات الله وسلامه عليه في الترسل والتريث في القراءة والترتيب كذلك حتى أنكر ابن مسعود ﷺ على نهيك بن سنان سرعته في القراءة حين

(١) إحياء علوم الدين ط صـ ٣٨٨.
(٢) التبيان في آداب حملة القرآن صـ ٦٢، ٦٣.

قال قرأت المفصل البارحة فقال عبد الله هذا كهذا الشعر.. [١]

وقد قرأ علقمة على ابن مسعود ﷺ وكأنه عجل فقال عبد الله (فداك أبي وأمي يا رسول الله فإنه زين القرآن) [٢].

وخلاصة القول أن الترسل في القراءة والتمهل فيها يؤدي إلى ضبط معانيها وإدراك أهدافها والترتيب فيها يؤدي إلى ترابط أهدافها وظهور مقاصدها واتضاح معانيها واكتمال فكرتها في ذهن القارئ والسامع من هنا كان الترسل والترتيب في القراءة معيناً من معينات الفهم.

(٦) استظهار القرآن وإدامة النظر فيه:

وهذا أيضاً من الأبواب التي توصل إلى الفهم وتعين عليه فإن استظهار القرآن واستحضاره يجعل العقل أقدر على تفهم قضاياه والربط بين محاوره ولعل لمحة من لمحات الإضاءة أو إلماعة من إلماعات التوفيق ساعة مراجعة أو استذكار رأي لا تكون إلا كصيد الخاطر أو طير سارح يحتاج إلى ربط وتقييد _فهذا الكتاب لا تنتهي عجائبه ولا تبلى جدته ومن الأمور المجربة أن المرء يكون قد تلا الآية أكثر من مرة ويتلوها من جديد فيتبين له معني ما كان قد وقف عليه من قبل.. إن الاتصال الدائم بالقرآن تلاوة ودراسة وحفظاً وترتيلاً من الأمور التي لابد للمفسر من أن ينصب بها وحفظ العالم للقرآن والاتصال الدائم به يعينه في تفسيره القرآن

---

(١) رواه رواه مسلم ج١ ص٦٣٥باب ترتيل القراءة برقم ٨٢٢
(٢) تدبر القرآن للسنيدي صـــ ١٢١.

بالقرآن ولا تسد المعاجم الموجودة مسد الحفظ أبداً.. وتلاوة القرآن بترتيل وتدبر بصورة دائمة توقف المفسر على كنوز لا حصر لها فقد ينقدح في نفس القارئ مرة من المعاني في تفسير آية[1] ما لم يكن يخطر باله من قبل وربما يكون المعنى الذي وقف إليه لم تبدله أحد من قبل إن إمعان النظر في هذا الكتاب الكريم يكشف فيه كل يوم عن كل جديد وسيظل معطاءً زاخراً ما توالي الجديدان وتتابع الحدثان فكل عصر من العصور يضيف إلى فهوم السابقين فهماً جديداً وكل لمسة من مفسر تضيف جديداً وتفيد حميداً من هذا الكنز الذي لا يذهب رواؤه والمعين الذي لا ينضب ماؤه وهي معجزة من معجزات الله تعالي للبشر على مر الأيام وتتابع السنين.

(٧) صلاة الليل

وقيام الليل بالقرآن من أقوى الطرق الموصلة إلى فهمه ومعرفته ولم لا والليل باب الخشوع والخضوع فيه يستأنس المحبون بمحبوبهم ويستوحشون من زحمة الدنيا في نهارهم حتى ما يجدون راحة أنس ولا حلاوة مناجاة إلا في تلكم الأوقات التي لا أنيس فيها ولا جليس ولا رقيب ولا حسيب إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى فيفرون من زحمة الدنيا وصخب الحياة وضجيج الناس وتهارشهم على الحياة ومتعها وزخارفها إلى هدأة الليل وسكونه فإنه للصوت أسمع وللقلب أخشع وللعين أدمع وإلى ستر العيوب عن الخلق أقرب، ولأمر ما كان قيام الليل في حق النبي ﷺ والجماعة

(١) بحوث في أصول التفسير صـ٣١ ط المكتب الإسلامي ط أولي ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨م

المؤمنة الأولى فرضاً حتى نزل التخفيف عن الأمة وبقي في حق النبي ﷺ فرضاً إلى أن مات ذلك ولك أن تعيش قوله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾[1] فإن مغالبة هتاف النوم وهتاف وجاذبية الفراش بعد كد النهار أشد وطئا وأجهد للبدن ولكنه إعلان لسيطرة الروح واستجابة لدعوة الله تعالى وإيثار للأنس به ومن ثم فإنها أقوم قيلا لأن للذكر فيها حلاوة وللصلاة فيها خشوعها وللمناجاة فيها شفافيتها وإنها لتكسب في القلب أنسا وراحة وشفافية ونورا قد لا يجدها في صلاة النهار وذكره والله الذي خلق هذا القلب يعلم مداخلة وأوتاره ويعلم ما يتسرب إليه وما يوقع عليه وأي الأوقات يكون فيها أكثر تفتحا واستعدادا وتهيئا وأي الأسباب أعلق به وأشد تأثيرا فيه والله تعالى وهو يعد عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم لتلقي القول الثقيل وينهض بالعبء الجسيم اختار له قيام الليل لأن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا ولأن له في النهار مشاغله ونشاطه الذي يستغرق كثيرا من الطاقة والالتفات"[2] وقد قال ابن عباس ﷺ قوله تعالي "وَأَقْوَمُ قِيلاً" قال هو أجدر أن يفهمه القرآن ابن حجر رحمه الله عن مدارسة النبي ﷺ في كل ليلة من رمضان المقصود من التلاوة والحضور والفهم لأن الليل .....

(١) المزمل ١-٦.
(٢) الظلال ج٦ ص ٣٧٤٥و٣٧٤٦.

كما في النهار من الشواغل والعوارض الدنيوية والدينية[١] وهناك من الشواهد ما يدل على اقتران قراءة القرآن بالليل فمنها قوله تعالي ﴿ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ [٢] وقوله ﷺ من قام عن حزبه فقرأ فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب كأنما قرأه من الليل[٣]

(٨) التحلي بأخلاق القرآن قولاً وعملاً

والتحلي بأخلاق القرآن والتطبع بصفاته التي أرشد إليها باب من أبواب التفاعل مع هذا الكتاب الكريم الذي لا يتيح كنوزه بحق إلا لمن عاشه وعايشه معايشة فعلية لا معايشة ثقافية ولا فكرية فحسب فكم رأينا من ومضات وتذوقات لأفراد بضاعتهم في علوم القرآن وأصوله ليست كبيرة ولكن طباعهم وأخلاقهم مصدرها القرآن ومراجعها هذا الدستور الإلهي الكريم وهذا ما عاشه بحق سلفنا الصالح حياة حقيقية (فالمرء لا يستطيع بمجرد فهم ألفاظ القرآن وإدراك معاني جمله فقط أن يصل إلى إدراك التفاعل النفسي الذي ينطوي عليه رجال السلف الصالح عندما تعاملوا مع هذا الكتاب.. هناك أشواق وتذوقات وإشراقات وومضات ونفحات وفتوحات لا يتوصل إليها المرء بمعرفة الألفاظ والمعاني بل لابد له من أن يعيش نفسه في نور تلك التذ وقات والومضات ولن يكون

---

(١) فتح الباري ٩-٤٥
(٢) آل عمران: ١١٣.
(٣) رواه مسلم من حديث عمر بن الخطاب ج١ ص٥١٥برقم٧٤٧ وانظر تدبر القرآن صـ ٣٢.

ذلك إلا بالإيمان العميق النامي والعمل الصالح والخلق الحسن.. إن أصحاب النبي ﷺ لم يكن أحدهم يتلقى القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ولا ليضيف إلى حصيلته من القضايا العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته إنما كان يتلقى القرآن ليلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي تعيش فيها وشأن الحياة التي يحيا ها هو وجماعته. يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه كما يتلقى الجندي في الميدان الأمر ا ليومي، ليعمل به فور تلقيه ومن ثم لم يكن أحدهم ليستكثر منه في الجلسة الواحدة لأنه كان يحس أنه إنما يستكثر من واجبات وتكاليف يجعلها على عاتقه.. وهذا الشعور شعور التنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من الانتفاع وآفاقاً من المعرفة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والاطلاع وكان ييسر لهم العمل ويخفف عنهم ثقل التكاليف ويخلط القرآن بذواتهم ويحوله في نفوسهم وفي حياتهم إلى نهج واقعي وإلى ثقافة متحركة لا تبقى داخل الأذهان ولا في بطون الصحائف إنما يتحول أثاراً وأحداثاً تحول خط سير الحياة. إن هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح روح المعرفة المنشئة للعمل إنه لم يجئ ليكون كتاب متاع عقلي ولا كتاب أدب وفن ولا كتاب قصة وتاريخ. وإن كان هذا كله من محتوياته إنما جاء ليكون منهاج حياة منهاجاً خالصاً وكان الله سبحانه يأخذهم بهذا المنهج مفرقاً يتلو بعضه بعضاً[1]) وهذا

(١) بحوث في أصول التفسير ٣٤، ٣٥ وانظر معالم في الطريق ص١٧و١٨ ط دار الشروق ط العاشرة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م للشيخ الشهيد سيد قطب

التطبيق العملي الصادق والطلب الجاد في تنفيذ تعاليم القرآن في الحياة هو ما جعل الجيل الأول الرائد من أصحاب النبي ﷺ من أكثر الناس فهما لهذا الدين حتى تجاوبوا معه وقت نزوله فتلفظوا بألفاظه وألهموا أحكامه وتوقعوا توجيهه وإرشاداته وما موقف عمر وإلهاماته ببعيد ليس ذلك فراسة عمرية فحسب ولا حدساً عربياً ذكياً فقط لكن أيضاً شعور خالطه وجيهات القرآن فكانت أوامره ونواهيه مصبحهم وممسا هم يتفكرون فيها في جلو اتهم ويستذكرونها في خلواتهم وكم يخطر ببالي مرة واحدة أن هذا الجيل الرائد كان أنموذجا طبق عليه ربنا عز وجل ما ينبغي أن يتحلى به الجيل الذي يعمر الحياة وينير الأرض ويوقظ خيرها بمنهاج الله عز وجل. فمن أراد أن يفهم كما فهموا فليعش كما عاشوا وليعمل بما عملوا فهذه هي الجادة فأين السالكون.

الخاتمة

أسأل الله حسنها

فهذه رحلة ضرورية حول فهم القرآن الكريم بين القواعد التي تضبط العقل من الزيغ والهوى وتعصمه من الوقوع في مها و ي الفكر ومحظورات التفسير وبين المزالق التي إن عرفها المفسر والقارئ ليتجنبها نجا من شرك التفسيرات الخاطئة والمخطئة وقد دارت هذه الدراسة المبسطة حول عدد من القواعد وركزت على ضرورة الفهم الصحيح للقرآن الذي هو الدستور الخالد للأمة وخلاصها وسر نجاتها وعزتها وهذا الفهم لا يقل أهمية عن عناية المسلمين بالشكل والأداء بل إن الشكل والأداء خطوة إلى الفهم والإدراك كما أكدت الدراسة على أن واقع المسلمين المر الذي يعيشونه سبب من أسبابه ضعف صلتهم بهذا الكتاب الكريم الذي أخرج أمة من العدم وأعزها بعد ذل ووحدها بعد فرقة وشتات ولا يقصد بذلك ضعف صلتهم به من ناحية حفظه واستظهاره أو إتقانه وأدائه فهذا جانب قد أخذ حظه الغامر ونصيبه الوافر ولكن يقصد ناحية الوصول إلى الفهم السليم والإدراك القويم لمرامي هذا الكتاب الخالد

ثم عرضت الدراسة لبعض العقبات التي تعرقل عملية الفهم السليم وتناولت بعض المعينات التي تجعل الإنسان أقدر على فهم

القرآن والتواصل معه وكلي أمل أن يلتفت الناس عامة والمسلمون خاصة إلى عقد صلة وثقى وعروة كبرى بينهم وبين القرآن حتى يسودوا الدنيا ويقودوا العباد إلى طريق الله ﷻ

والله من وراء القصد

رمضان

فهرس المصادر والمراجع

١- إحياء علوم الدين جـ١ صـ ٣٩٨ دار المكتبة العصرية صيدا بيروت د أولى ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م لحجة الإسلام الإمام الغزالي.

٢- البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي ط دار المعرفة بيروت لبنان ط أولى ١٣١٠ هـ -١٩٩٠ مـ ت يوسف مرعشلي وآخرين

٣- المنار للشيخ محمد رشيد رضا ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣مـ .

٤- تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ط أولى ١٤٠٢ هـ .للشيخ عبد الرحمن السعدي

٥- سنن ابن ماجة

٦- صحيح الإمام مسلم ط دار التراث العربي بيروت ت محمد فؤاد عبد الباقي .

٧- معالم في الطريق ط دار الشروق ط العاشرة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٠ مـ للشيخ الشهيد سيد قطب.

٨- أضواء البيان جـ٧ صـ ٢٥٧، ٢٥٨ ط دار الحديث القاهرة

ط ١٤٢٦هـ ٢٠٠٠م.

٩- تلبيس إبليس

١٠- الظلال ط الشروق للأستاذ الشهيد سيد قطب .

١١- المدخل لدراسة القرآن الكريم د.محمد محمد أبي شهبة ط دار الجيل ١٤١٢هـ ١٩٩٢م

١٢- مناهل العرفان ج١ صـ١٠٦ط الحلبي للأستاذ الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

١٣- المرجعية العليا في الإسلام للقرآن والسنة مؤسسة الرسالة ط أولى ١٤١٤هـ ١٩٩٣م لأستاذنا الدكتور يوسف القرضاوي.

١٤- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ط دار الحديث للشيخ محمد فؤاد عبد الباقي .

١٥- مباحث في علوم القرآن ط دار العلم للملاين الرابعة للنشر و ٢٠٠٠م د.صبحي الصالح

١٦ - مدارج السالكين

١٧- بحوث في أصول التفسير د محمد لطفي الصباغ ط المكتب الإسلامي ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨،

١٨- التبيان في آداب حملة القرآن ط دار القاسم ط أولى ١٤٢٠ هـ للإمام النووي.

١٩- التبيان في أقسام القرآن
٢٠- التحرير والتنوير ط دار سحنون بيروت. الأستاذ الإمام محمد الطاهر بن عاشور
٢١- تدبر القرآن ط المنتدي بمكة .... ط الثانية ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م. د سليمان السنيدي.
٢٢- تفسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن ط أولى ١٤٢ هـ/ ٢٠٠م عبد الرحمن السعدي.
٢٣- جامع البيان العلة وفضله .
٢٤- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
٢٥- صحيح البخاري ط دار ابن كثير بيروت لبنان ١٤٠٧ هـ ـ١٩٨٧مط الثانية ت مصطفى البغا
٢٦- العقيدة الواسطية
٢٧- الكشاف للإمام الزمخشري ط دار المعرفة بيروت لبنان بدون
٢٨- كيف نتعامل مع القرآن ط المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط أولى ١٤١٢هـ ١٩٩٢م لأستاذنا الشيخ محمد الغزالي.
٢٩- لطائف الإشارات للقسطلاني ١/ ٢٤٩.
٣٠- مختصر مناهج القاصدين لابن قدامة المقدسي.

٣١- مفاتيح الغيب للإمام الرازي .

٣٢- مفتاح دار السعادة لطاش كبرى زادة

٣٣- مقدمة أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق إبراهيم بن محمد ط دار المؤيد ط. أولى ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

٣٤- الموافقات للإمام الشاطبي

٣٥- دراسات في علوم القرآن ط دار المنار لأستاذنا المرحوم د. محمد بكر إسماعيل طيب الله ثراه.

٣٦- الوقف والابتداء وصلتهما بالمعني في القرآن الكريم رسالة ماجستير لزميلنا الدكتور عبد الكريم إبراهيم عوض صالح

٣٧- معرفة القراء الكبار للإمام الذهبي ط دار الكتب العلمية ط اولى ١٤١٧هـ

٣٨- أسباب النزول للواحدي ط دار الكتب العلمية ط اولى ١٤٠٢ هـ

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
المحور الأول الفهم القرآني فريضة ربانية وضرورة حياتية	٩
المحور الثاني قواعد الفهم	١٤
القاعدة الأولى معرفة أسباب النزول	١٥
القاعدة الثانية معرفة بيئة النزول	٢٠
القاعدة الثالثة معرفة الناسخ والمنسوخ	٢٢
القاعدة الرابعة معرفة المحكم والمتشابه	٢٥
القاعدة الخامسة معرفة الوقف والابتداء	٢٨
القاعدة السادسة معرفة عادات العرب وأخبارهم	٣٣
القاعدة السابعة معرفة علم أحوال البشر	٣٩
القاعدة الثامنة معرفة معهود الخطاب القرآني	٤١
القاعدة التاسعة معرفة قواعد اللغة العربية	٤٤
القاعدة العاشرة معرفة موضوع القرآن الكريم ومقاصده الأساسية	٤٧
القاعدة الحادية عشر فهم حقائق الألفاظ المفردة	٥٣
المحور الثالث عقبات في طريق الفهم	٥٧
١- عدم التدبر والميل إلى نزعة أو مذهب	٥٧
٢- النظرة الجزئية	٥٩
٣- الوقوف عند حسن التلاوة وبهاء الصوت	٦٥
٤- وضع النصوص في غير مواضعها	٧١

الموضوع	الصفحة
٥- ان يكون همه آخر السورة	٧٤
٦- مرض القلب أو عدم خضوعه	٧٦
٧- التورع الواهم	٨٠
٨- الوقوف عند الأبنية الفكرية السابقة	٨٤
٩- الاشتغال بالمبهمات	٨٨
١٠ - عدم استصحاب قواعد التفسير	٨٩
المحور الرابع معينات الفهم	٩١
١- المعايشة	٩١
٢- حضور القلب	٩٨
٣- المدارسة	٩٩
٤- صدق القلب	١٠٠
٥- سلامة التلاوة والترسل فيها والترتيب بين أجزائها	١٠١
٦- استظهار القران وإدامة النظر فيه	١٠٣
٧- صلاة الليل	١٠٤
٨- التحلي بأخلاق القرآن قولا وعملا	١٠٦
الخاتمة	
فهرس المصادر والمراجع	١٠٩
فهرس الموضوعات	١١١
	١١٥